10

موافقات

الشاذلي القليبي

من قضايا الدين والعصر

الدار التونسية للنشر

سلسلة يشرف عليها
كمال عمران

هذه السلسلة تصدر
بالتعاون مع وزارة الثقافة

الشاذلي القليبي

من قضايا الدين والعصر

الدار التونسية للنشر

ISBN 9973 - 12 - 140 - 6

9973 - 12 - 229 - 1

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مجتمعاتنا تنشد الوئام

أبقى ما يتساءل عنه البشر ، منذ ظهور الضمير الإنساني ، مآلهم بعد الموت ، وهل بين هذه الحياة وذلك المآل من صلة تفرض أن يقدموا في الدنيا ما به سعادتهم في الآخرة .

ذلك هو التساؤل الذي نجده دوما في قرارة الإنسان ، مهما تقلبت به الأحوال ، ومهما تفلسفت به مذاهب التفكير .

وأغلب ما كان يطمئن إليه البشر ، جوابا عن هذا التساؤل ، الإيمان بحياة بعد الموت ، تختلف قيمة بحسب ما قدّم من خير أو شر : وذلك هو جوهر الدين .

ولعله من طبيعة الإنسان أن يتساءل عن المستقبل، وأن يُعْنَى في كل حال ، بتجاوز ما هو فيه ، الى فسحة من الغيب ؛ إلا فئات قليلة ممن أنكروا ، واستبدلوا التاريخ بالغيب ، فجعلوا تجاوز الإنسان جريا وراء إنشاء كيان له ، ليس في الوجود قيمة سواه ، حسب اعتقادهم ، ولا طائل من ورائه .

وقد طغى هذا الاعتقاد في أروبا ، في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، حتى عمّ فئات اجتماعية مختلفة . ثم طما الى بلاد كانت عريقة في التديّن ، مثل البلاد الإسلامية ، فلم تتزعزع عقيدتها ، لكنها ، من خلال ما اقتبسته من أنماط في التفكير والتنظيم ، وجدت نفسها ، أحيانا ، بمنأى عن مشاغل الدين .

وعن ذلك الابتعاد عن الدين ، نشأت احدى معضلات هذا العصر ، في سائر بلاد العالم ، وفي

مجتمعاتنا الاسلامية بالذات : ذلك أن التاريخ لم يستطع أن يملأ ما تركه الدين من فراغ في نفوس البشر، ولم يتمكن من خلق الضوابط الخلقية التي بها نكهة الحياة ، بحلها وحرامها ؛ فإذا الانسان يمعن فيما انفتح له من حرية ، فلا يجد لها طعما ، ولا هو مدرك للحياة معنى ، ثم هو لا يظفر ، من التجاوز عبر التاريخ ، بما يحتاج اليه من فسحة لآماله وأحلامه ؛ وسرعان ما يرتطم بصخور تحجب عنه ما كان يصبو اليه، وراء الكسب والصلف التاريخي ، من إشراق للروح ، به يستقيم الوجود ويكتسب معناه .

الى ذلك ، مضافا اليه عوامل أخرى راجعة الى خصائص العصر ، تعزى ردود الفعل التي تشهدها الشعوب ، اليوم ، رجوعا الى الدين ، بل بحثا عن إيمان يعمر نفوسا خاوية على عروشها ، بلقعا ، تنشد ، معا ، الارتباط بعقال ثابت ، والانطلاق الى أبعاد غير متناهية . وهو بالضبط ما يوفره الدين ، بما يتلألأ فيه من قيم روحية وسلوكية ، بها يعلو الانسان على ما هو منغمس فيه من أوحال المادة .

ولكن الدين ، اليوم ، لا سيما في بلادنا الاسلامية، كثيرا ما يبدو ، لهذه النفوس العطشى ، على غير نسق مع واقع العصر وشؤون المجتمع . ذلك لأن الدين لم يواكب التطور الاجتماعي ، ولأن المجتمع لم يراع للحياة الروحية حقوقها . فاذا التوق ينقلب الى انفجار ، واذا الطلب يتحول الى ثورة الأوضاع ، قصد الظفر بأصالة ، هي ، في أغلب الأحيان ، من صنع الاجتهاد .

ومن الطبيعي أن يتفلسف البعض في تكييف هذا التوق ؛ كما أنه لا مناص أن يختلط هذا الطلب بمآرب عاجلة ، اجتماعية أو سياسية . فهل يجب أن نخنق من عنف هذا التوق ؟ وهل ينبغي أن نتجاهل منطلقات هذا الطلب كالسيل يحمل شتى المجروفات : فيها الزبد الذي يذهب جفاء وفيها الثرى الذي ينفع الناس فيمكث في الأرض ، فيحييها ويبعثها نشأة أخرى ؟

الدين قوام واعتدال ، أو يزيغ عن مقالته التي هي الخير والبرّ والإحسان بالنسبة الى الفرد وبالنسبة الى الجماعة ، سواء . فليس للمجتمعات الاسلامية بدّ من

مراجعة أوضاعها ، الاجتماعية والدينية ، معا ، مراجعة ينبغي أن تكون هادئة منظمة ، لخلق مناخ روحي يتناسق والتطور الفكري والرقي الاجتماعي والازدهار الاقتصادي .

ذلك ما نحن مطالبون به ، حتى يكون الدين بحق، كما أمرنا به ، لله ولرسوله ولخير المسلمين، في حياتهم ومعادهم .

ونحن لذلك مطالبون برتق الفتق بين ما نحن فيه من شواغل ، وما يدعونا اليه الدين من فروض ، حتى تكون الحياة ، لدى الأفراد والمجتمعات وحدة متماسكة الأجزاء ، متآلفة القوى .

نحن إذن ، مدعوون الى بناء فكري جديد ، يمكّن الانسان المسلم مما ينشده من وئام في نفسه وفي الآفاق .

الى ضرورة هذا البناء يشير ما جمع في هذا الكتاب من مقالات — لعلها تكون مساهمة في الحوار القائم في نفس كل مسلم ، فيما بينه وبين ضميره .

مسؤولية الابلاغ

من الأمور الّتي أخذتها طائفة من اسلافنا عن الثقافة الفرنسية الإيمان بالعلم على أنه قادر على تفسير كل شيء ، إن عاجلا أو آجلا ؛ وأنه لم يعد بنا من حاجةالى الركون الى الدين لفهم أسرار الكون . وأدى ذلك ببعضهم ، وعددهم والحمد للّه قليل ، الى خلع المعتقدات الدينية ، ظنا منهم أنها استوفت ما كان لها في القرون الغابرة من رسالة متصلة بصدّ الناس عن الشر ، والاستجابة لما جبل عليه البشر من ميل الى طلب فهم المغلّقات « في الآفاق وفي أنفسهم » ؛ وأن العلم ، في هذا العصر ، أصبح قادرا على تفسير كل

معضلات الوجود ؛ وأن الضمير الخلقي أصبح هو أيضا في إمكانه أن يردع الناس عما كانوا يهابونه مخافة عقاب الآخرة.

ولعل الكثيرين من هؤلاء كانت تحدوهم رغبة في التنصل من « ربقة الدين » في تصريف شؤون الدنيا ، اقتداء بالفكر الجديد واتباعا الى « موضة » العصر ؛ ولم تكن نفوسهم تخلو من إيمان صادق ، على ما يشوبه من غموض وتفكك .

ولعل الذي حدا بهم الى هذه المواقف العلنية او الى هذه الاتجاهات الضمنية ، إعجابهم بأساتذة فرنسيين تشبعوا بعلمانية القرن التاسع عشر المتلخصة في الإيمان بالعلم عوض الإيمان بالدين .

وكان من واجب الأساتذة التونسيين في ذلك العصر أن يواجهوا التأثيرات الهدامة بتلقين حقائق الاسلام ، وتحبيب ما يقوم عليه من قيم وهاجة ومبادىء أخلاقية وأسس اجتماعية . ولقد اجتهدوا بالفعل أن يقوموا بواجبهم . وبعضهم ممن وفقوا في

ذلك يذكرهم تلامذتهم بشيء من العرفان والتقدير غير قليل . ولكن أكثرهم ، والحق يقال ، لم يستطيعوا أن يؤدوا رسالتهم أداء كاملا ، لسبب ما كانوا ليملكوا له سلطانا : وهو اختلاف الذهنية بينهم وبين هذه النابتة التي كانت تنهل من فكر ديكارت وشك فلتار ، وروح القانون عند مونتسكيو ، ثم تأثرت بعلمانية كونت ، وانبهرت ببريق الحضارة الأوروبية ، فألقي في روعها ، من حيث لا تشعر ، أن ما أحرزه الأوروبيون من تقدم إنما الفضل فيه ما خيل إليها أنّه تحرّرهم من قيود الدين.

وللمذهب العقلاني في غلوه وإسرافه غيبوبة تشبه شطحات الصوفية . فلذلك كان الآخذون به يؤمنون إيمانا أن العقل في مقدوره أن يحل مغلّقات الكون وأن الانسان ، بفضل العلم ، لم يعد في حاجة الى الدين ليشق طريقه في الوجود ، أو ليطمئن على مصيره بعد الموت . والموت هو نفسه شيء أصبح العلم يحاول أن يفك ألغازه ، طمعا في تأخير ساعته ، والتخفيف من حتمية قضائه .

ولكن الفكر العلمي تطور ، وتجاوز هذه المواقف

العقائديّة . وأصبح ، اليوم ، الى التواضع أقرب ، وعن الصلف أبعد .

ولم يمت الدين في الانسان كما ادّعى نيتشا . ولعل الفطام أجج فيه الظّمأ ، وجعل عودة الدين في هذه الأيام كالمد بعد الجزر ، في عنفه عند الشباب ، وشموله لكل الأقطار .

ومن جيلنا ، ومن الذين جاؤوا بعدنا ، طائفة تأثرت بالفلسفة الماركسية ، فذهبت الى قصر اهتمامها على ما يتصل بحياة الانسان في المجتمع ، واعتبرت أنّ أوكد الواجبات إسعاد الجماعة ، دون انشغال بما سوى ذلك من أمور ، ليس في نظرهم من طائل وراءها.

هؤلاء ركزوا على اهتمامات هي عند البشر ذات شأن ، ولكنها لا تستأثر بمهجتهم ، ولا تستقيم بها وحدها حياتهم . ذلك أن الانسان حيوان يمتاز ، في جملة ما يمتاز به — وقد أقول في مقدمة ما يمتاز به — بأنه مجبول على تجاوز المادة الى ما به في نظره قوامها ، أعني الروح ، والروح مآلها يتجاوز المجتمع والتاريخ ،

وتنفذ من أقطار الدنيا . ولن تستطيع قوة أن تكبح من جماح هذا التوق ، ولا أن تكبت في الانسان هذا النداء.

ومن هذين الجيلين طائفة أخرى ، أكثر عددا ، تلقوا ثقافة تقليدية مزجت في أنفسهم القناعة الدينية وضربا خفيّا من الاستحياء أن يظهروا في أعين أترابهم في مظهر المتخلفين عن عصرهم : فتكلفوا لذلك من «التحرر» ما يزيد أحيانا عن القدر .

هؤلاء حسنت نيتهم بموضة العصر فأرادوا أن يوفقوا بين تعاليم الدين وذهنية الجيل . وهو قصد شريف ، وطلب جليل ، الى مثله ينبغي أن تتجه الجهود. ولكن كان الأجدر أن يقصدوا الى اللب ، ولا يقنعوا بالأمور السطحية التي لا تسمن ولا تغني من جوع .

وتجاه كل هذه الفئات ، من القدامى والمحدثين ، وفي غير حوار معهم ، غالبا ، جماعة صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه ، وتعلقوا بتقاليد دينهم في شغف وتقوى تشبه

الصلاح عند بعضهم . إلا أنهم وقفوا دون باب الاجتهاد ، خوفا من ترك السّنن الذي كان عليه السلف الصالح .

وهؤلاء كثيرا ما ظلمهم الذين لا ينزعون منزعهم ، فنسبوهم الى جمود الفكر ، وتحجر السلوك ، والعجز عن ابتكار الحلول الملائمة للعصر . وقد يبدو هذا الحكم على درجة من الصحة لولا مراس طويل ، مكّن من الوقوف على جلية حالهم ، اذ هم أحجموا عن الاجتهاد لا عجزا عنه ، بل ورعا وتواضعا ، في أغلب الأحيان .

ولعل من باب الاحترام لهم أن نذكّرهم بأنهم حُمّلوا أمانة ثقيلة ، عليهم أن يبلّغوها ، بأي من الطرق الممكنة . ولن يؤدوها إلا إذا توخوا نهج الرعيل الأول من كبار المجتهدين ، وذلك بإعمال العقل ، وآستنباط الأحكام بحسب ما تدعو اليه الضرورة . والضرورة اليوم إنما هي في الإبقاء على الدين أن يتلاشى ، وفي تعمير نفوس من الشباب أصابها الخواء الروحي ، وتوشك العقائد الجديدة أن تعصف بها عصفا . تلك

هي مصلحة الاسلام ، في مختلف الأحوال . ومصلحة الاسلام بمصلحة الانسان والمجتمع ، على تقلب أحواله ، غير مرتبطة بأشكال وصيغ هي ، على قداستها ، وسائل ، وليست من أركان العقيدة .

ولهم أيضا ، وإلى أصحاب الفئة السابقة ينبغي أن نقول ، مع الإكبار لتقوى هؤلاء ، والتّفهم لاجتهاد أولئك : إن أهم ما يُسألون عنه هل أحسنوا تبليغ الأمانة ، وهل وفقوا إلى ضمان بقاء الدّين جذوة حية في نفوس الأجيال الصاعدة ، يهدي أعمالهم وينير تفكيرهم ، حتى لا يكون الاسلام مجرد كلمة بدون محتوى ، ولا يكون الانتساب اليه عند البعض منهم نسبا اجتماعيا ، لا يستند الى معتقد ديني .

وفي عصر لا يزال الخرق فيه يتسع بين العقلية الجديدة وذهنية القرون الماضية ، ليس لنا أن نبلغ هذا القصد الا إذا استطعنا أن نؤدي الرسالة المحمدية بلغة يفهمها أهل العصر ، أسوة به عليه الصلاة والسلام إذ قال «خاطبوا الناس بما يفهمون» ؛ وأن نعيش الاسلام

لحمة حية لكل أعمالنا وخلجات تفكيرنا ، لا مجرد بنود متحجرة ، معزولة عن سائر ما نخوض فيه من أعمال واجتهادات وقيم .

بذلك يمكننا أن نجعل الدين في قلب اهتمامات الشباب ، دون انفصام لعروته الوثقى ، انفصاما يرمي به في مهملات الذاكرة ، فيعزله عن الاغتناء بنبضات الفكر الحي ، ويحرم من معينه الصافي نفوسا غضة توشك التيارات المعطلة أن تجرفها إلى الإلحاد والتّنكّر لسائر القيم الدينية .

وأن نُبقي هذه اللحمة بين المعتقد وبين الفكر والشّعور ، ذلك من مسؤولياتنا التي نحن مدعوون الى الاضطلاع بها ، والتي بدونها لا يكون السلف قد أدى الأمانة في حق الخلف .

لذلك فإن واجب فقهاء الدين ، اليوم ، لا يقتصر على القيام بفرائض الدين لتحقيق سعادتهم في الآخرة ، بل يتجاوز ذلك الى إبلاغ رسالة الاسلام ، وضمان تلقّيها من الأجيال الجديدة .

ذلك من عزم الأمور . وذلك هو الفوز العظيم .

رسالة حيّة على الدّوام

باستثناء المعتقدات والعبادات ، فإن الاسلام حقيقته الدائمة هي التطور . فلا يمكن التقيد فيه بنموذج . ولو سئلت عن جوهر تعاليم الاسلام لما ترددت في الإجابة : إنما هي الاجتهاد . ذلك ما أمر به القرآن ، إذ دعا إلى إعمال الرأي ، والتفكير ، والتدبر؛ وذلك ما يؤخذ من الحديث الشريف القائل بأن «من اجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا ... اجتهد ثم أخطأ فله أجر» وذلك سلوك الخلفاء الراشدين ، وخاصة منهم عمر الفاروق الذي كان ، من حيث الاجتهاد في التشريع والاجتماع ، فائقا على غيره من الخلفاء.

وما ذهب إليه أغلب السلف من رفض التبديل ونبذ البدع، إنما يجب صرفه إلى المعتقدات . أما الأخلاق فمجال واسع ليس للمسلم من خوضه بد ، لتعميق الإيمان ، وتزكية السلوك ، وتنقية النفس من أدران الأهواء . وأما المعاملات فلابدّ لأحكامها من اعتبار تقلب الأحوال ؛ وتغير الضرورات ، وتطور حاجات الانسان باختلاف الزمان والمكان ؛ وقد روي عن عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين : «تحدثُ للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور» .

لذلك نعتقد أنه من غير المعقول أن نعزل عملية فهم الاسلام عن المحيط الثقافي والفكري السائد في مجتمعاتنا المعاصرة . ولا يمكن الاقتصار ، في معالجة مشاكل العصر ، على أدوات أعدت منذ قرون طويلة ، وفي أوضاع فكرية واجتماعية مغايرة للأوضاع التي نعيشها اليوم . فكما أن العلوم والفلسفة أدواتها الفكرية تطورت بحسب تطور الفكر ، وخلجات الضمير ، وتبدل الأحوال الاجتماعية ، فكذلك لا مندوحة أن تتغير أساليب التحليل والاستنباط ، في كل ما يتصل بفقه الدين ، وتنظيم المعاملات ، وتعميق الأخلاق .

فلابدّ إذن من اعتبار الاجتهاد من واجبات المجتمعات الاسلامية . ولابدّ من قبول مبدإ ممارسة هذا الاجتهاد على أرضية ثقافية تتطور دوما بحسب تطور هذه المجتمعات .

على أن الاجتهاد له شروطه ؛ وهي تلك التي كان ضبطها السلف المجتهد ، ومنها إحكام العلوم اللغوية ، ومعرفة كاملة بالقرآن والسنة ، واطلاع دقيق على أقوال كبار الأئمة ، وإلمام واسع بالأحوال الاجتماعية التي كانت سائدة في عصر النبوة ؛ ومنها أيضا ، معرفة دقيقة باحوال العصر الذي يعيش فيه المجتهد ، وإحاطة بشواغله وممارسة لقضاياه .

ومن ذلك يتقرر أنه لا يمكن الاضطلاع بمسؤولية الاجتهاد في عصرنا ، والتصدي لإعداد أدوات فكرية جديدة لمعالجة شؤون الدين ، الا إذا تم الاطلاع على الأدوات القديمة ، وأُحكم تدبّرها ، فظهرت الحاجة إلى اجتيازها ، والاستعاضة عنها بما هو أوسع استيعابا للقضايا القائمة ، وأدق تعبيرا عن شواغل الجيل .

وإنما ، لفقدان هذه الصلة العضوية الحية بين التفكير الديني والفكر المعاصر ، ظهرت في أغلب البلاد الاسلامية هذه الأزمة التي انتابت الشباب ، الباحث بعضه عن أصالة ، وبعضه عن معتقد : ما بين تيارات ماركسية تحاول نسف المجتمعات القائمة لإرساء هياكل جديدة ، وتيارات متفجرة مكافحة من أجل إسلام أعمق وإيمان أصدق . وكلٌّ يعبر عن سخط أو فراغ ، من جراء تلاشي الرسالة الإسلامية الّتي يفرض الوفاء لها الاجتهاد الدائم في فقهها وتصنيفها . ولذلك جعل الله خير ما يميز الانسان عن سائر الكائنات العقل وطلب العلم . وأمر بإعمال العقل في كل شيء ، كما أمر بطلب العلم من المهد الى اللحد ، بدون انقطاع.

وفي ذلك ردٌّ على مقولتين لا برهان عليهما : تتعلق الأولى بنعت بعضهم روح الاسلام بالرّجعيّة . ولما كان الاسلام قائما على الاجتهاد ووجوب النظر بالعقل في كل أمر ، فليس من المعقول أن يكون «رجعيا» في جوهر تعاليمه ، مثبطا لعزائم الشعوب التي تدين به . بل مثل هذا الدين لا يكون إلاّ محرضا على دوام «التقدم»

واستمرار التطور ، مراعاة للأوضاع ، وأخذا بضرورات الحياة . وما لِحق الشعوب الاسلامية من تقهقر وتخلف ، إنما كان بعد وثبة عظيمة . فلا يعقل أن يكون الاسلام سببا في النهضة طورا ، ثم علة التخاذل طورا آخر . وإنما الأوضاع هي التي اختلفت وتغيرت ، فلم تقو الشعوب على مجابهتها ، واجتناب الكبوة فيها . والكثير من شعوب الأرض وقعت في مثل تلك الأوضاع ، فحل بها مثل ما حل بالمجتمعات الاسلامية. لذلك يتعين التمييز ، عند الحديث عن الاسلام ، بين الاسلام دينا وجوهر حضارة ، وبين المجتمعات التي دخلت في الاسلام وأخذت بتعاليمه ، ثم ، لسبب ما ، أخلّت بها ، وتنكرت لها من حيث تعلم أو لا تعلم .

ومقولة ثانية في حق الاسلام يكثر ترددها على ألسنة بعض المتفلسفين : وهي أن الدين الاسلامي جعل الانسان في الحضيض ، إذ سلبه حريته وسخره لمشيئة اللّه ، وفرض عليه الاستسلام لحتمية القضاء . وهو قول من لا علم له بالاسلام ، لأن كنه المعتقد الاسلامي على عكس ذلك ، إذ يجعل الانسان سيد

الوجود الدنيوي بما اختصه به اللّه من حكمة ،. وقدرة على التمييز والاختيار ، بما ذهب اليه من رفع لشأنه ، حتى جعله خليفة اللّه في أرضه : وبهذا الاعتبار ، أمر اللّه الملائكة أن يسجدوا لآدم بعد أن «سوّاه ونفخ فيه من روحه» .

وما يدعى اليه الانسان ، في القرآن والسنة ، الى جانب الاجتهاد في الرأي ، إنما هو توخي الاعتدال في السلوك : فلا إفراط ولا تفريط . و من أوامر القرآن الأساسية أن «لا تغلوا في دينكم» حتى إنه يمكن القول بأن أخلاقية الاسلام إنما هي أخلاقية «قَوام» ، أي التزام العدل والاتزان ، وترك الغُلو والإسراف .

وهل أتت المذاهب الملقبة بالانسانية بما يعدو الإشادة بدور العقل ، والأمر بملازمة الاعتدال في كل الأمور ؟

وأمّا حمل الاسلام على معنى الاستسلام لحتمية القضاء، فهذا فهم قاصر وقول مردود ، بحجة أنه لو كان الأمر كذلك لما كان الى الدين من حاجة ، ولما كان

لأوامره ونواهيه من معنى . ولكن الاسلام أمر ونهى ، مُحمِّلا الإنسان مسؤولية أفعاله . وفي ذلك إقرار على الاختيار .

على أنه تبقى ، في كل الديانات وفي كل الفلسفات ، مسألة التوفيق بين حرية الانسان ، من جهة ، وعلم اللّه وقدرته ، من جهة أخرى . وهي مسألة لا يمكن حلها بالعقل لأن العقل ، كما يقول الفيلسوف الألماني كانت ، آلة موجهة الى الشؤون الدنيوية ولكنها قاصرة عن إدراك ما سواها ، مما هو من أمور الغيب ، ومتجاوز لما في متناول الحواس . فإن قيل كيف إذن يأمرنا اللّه بإعمال العقل لإدراك وجوده ، أجبنا أننا بالعقل ندرك ضرورة الغيب ، وبالهداية نؤمن باللّه .

وبذلك يُجيب الدين عن أخطر سؤال لم يزل يخالج الانسانية ، وهو : هل للانسان من وجود بعد فناء الجسد ؟ وهل من خالق له اليه المصير ؟ وهو تساؤل لم يزل يختلج في نفس الانسان . وحتى ، لما فشا الالحاد ، وتكلفت الفلسفة تحاشي الحديث عن أمور لا تخضع للعقل ، فإن السؤال نفسه تسرّب خلسة الى الفلاسفة

المحدثين في صيغة جديدة ، هي : «لماذا الكيان ؟ ولماذا توجد كائنات ؟» .

وأمّا ما ينسب الى الاسلام من غلو في الدعوة الى التقوى والخوف من اللّه ، فمعناه الصحيح أنه على الانسان أن يذكر اللّه دوما ، فلا يزال حاضرا في خلده. باعتباره مرجعا يحتسب اليه ويحتكم ، حتى لا تأخذه العزة ولا يغلو به الكبر ، فيعتقد أنه المرجع الأعلى والأخير في كل تصرفاته ، لا معقب لأعماله ولا رادَّ لأقواله .

وذلك عكس الجمود والانكماش ، بمفعول الخوف والتقوى ، لأن الانسان محاسب على كيفية تصريفه لهذه الآلة العزيزة الّتي وُضعت فيه ، وهي آلة العقل التي أُمر من أجلها بالاجتهاد، حتّى اعتُبر الخطأ أفضل من جمود العقل . والمرجع الذي هو محاسب لديه ، إنما هو أعلق به من نفسه ومن ضميره ، و«أقرب اليه من حبل الوريد» .

ومن «انسانية» الاسلام أنه الدين الوحيد الذي وفق بين النزعتين المتأصلتين في الانسان : نزعة الحرص

على البقاء ، ونزعة التجاوز دوما الى أبعاد لا يحدها حد. وتلك سنة الانسان التي لن تجد لها تبديلا ، في توقه الى الغيب ، وتعلقه بالدنيا . ولكن الاسلام دعا الى التزام المعادلة بينهما معا ، بدون إخلال بإحداهما ، بسبب الغلو في الاتجاه إلى الأخرى . وهو ما تلخصه قولة عمرو بن العاص المشهورة : «اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدا ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدا» ؛ ويبرزه القرآن في أجمل دعاء : «**ربنا ءاتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة** ...» (1) .

وفي كل ذلك دعوة الى أخلاقية «القوّام» التي هي كنه النزعة الانسانية ، وإقرار بأن الانسان حواس تدرك، ومهجة تتجاوز ، أي جسد مشدود إلى التربة ، وروح مجنحة تحن إلى المثل الأعلى .

على أن هذا التوازن بين شؤون الجسد ودواعي الروح لم يُفْض في الاسلام الى أخلاقية سمجة في توسطها ، مترسبة في الدون ، عاجزة عن حزم الأمور.

---

1. سورة البقرة الآية 201

فالاسلام ، بقدر ما اعتبر ضرورات الحياة الدنيوية، وحرّض على إحكام تنظيمها ، فقد دعا ، في نفس الوقت وبقوة ، الى جملة من القيم الروحية تتألف منها طاقة وهّاجة تدفع الانسان دوما الى تجاوز إمكاناته والى تفجير المعجزات من أعماق نفسه ، و تمكّنه من بسط سلطانه على الكائنات من حوله ، وفي الآفاق من عالمه .

ذلك أن الانسان ، في الاسلام ، فرد ، وعضو من جماعة ، معا : فرد ليس بينه وبين خالقه حجاب ، يناجي ربه دون واسطة ؛ وعضو من جماعة مدعو الى وعي انتمائه اليها ، وتضامنه معها ، والعمل بما يفرضه التضامن في السراء والضراء . لذلك نرى الاسلام يولي العبادات الجماعية منزلة خاصة ، كصلاة الجماعة والحج ، ويجعل من الزكاة أداة لتحقيق التضامن الاجتماعي بين الفئات الموسرة والفئات المعوزة .

ولئن كان الاسلام يشيد بفضل السرية في بعض الأعمال ، فهو يجعل العبادات الجماعية أعلى مقاما و أحب الى الله، ذلك أن الاسلام حريص على انغراس

الفرد في الجماعة ، يدعو دوما الى تغليب مصلحة المجتمع على سائر الاعتبارات ، ولو كانت دينية ؛ من ذلك اعتباره العمل لكسب القوت أفضل من التفرغ للعبادة .

وللمال في الاسلام منزلة خاصة ، إذ يندد بالحرص على جمعه لمجرد اكتنازه ، ويكره حرمان النفس منه ، أو حرمان الأقرباء وذوي الحاجة ؛ ويأمر بأن يكون في مال المسلم حظ معلوم للسائل والمحروم وابن السبيل ، وأن ينفق ذو مال من ماله في الجهاد وإقامة المصالح . وينهى أن يُنَمَّى المالُ بما فيه إضرار بالغير ، كالربا مثلا .

والاسلام هو الدين الوحيد الذي أمر بإنشاء مؤسسات لتنظيم التضامن بين المسلمين ، خاصة بإحداث بيت مال المسلمين – وهي فكرة في ذلك العصر ثورية – ، إذ اعتاد الناس أن تكون خزينة المال للملوك لا للرعايا ، وفي ذلك دليل على أن الاسلام لم يكتف بالصدقات الفردية ، بل عمد الى جعل العلاقات الاجتماعية مبنية على قواعد ثابتة تضمن استمرار عملية ما نسميه اليوم ب«التحويلات الاجتماعية» .

وأما العلاقات بالغير فهي مقدمة على سائر الأمور: فمن أوكد واجبات المسلم الإحسان الى ذوي القربى والى الجار ؛ ومن أكبر الكبائر بث البغضاء بين الناس: «**والفتنة أشدّ من القتل**» . ومن أكبر ذنوب المسلم ما كان في حق العباد .

ولو سئلت أن ألخّص روح الاسلام لقلت : هو التضامن بين المسلمين كافة ، والتراحم بين الناس عامة. وبعبارة أخرى ، فإن روح الاسلام في اعتبار «كيان» الانسان أعلى قيمة مما ملكت يداه من مال أو متاع . فجعل ، لذلك ، النية والقول والعمل ، وحدة متكاملة متماسكة ، هي التي يُعتد بها في تقييم الانسان، دون سائر أنواع البهرج من كسب وجاه ، والاسلام ، في ذلك ، على عكس المذاهب الملقبة بالرجعية والتي تلقن الحرص على «الأشياء» ، والحفاظ على المكاسب المادية ، وتفضي حتما الى عقلية الجمود والتّحجر .

ذلك وجه الاسلام الحقيقي الذي يجب أن يعرفه أبناؤنا ، وأن تَعمُر نفوسَهم تعاليمه السمحة النيرة :

فهو في كل ما يتصل بالنظريات ، آجتهاد متواصل ، مع طلب دائب للعلم ؛ وهو في خصوص الأخلاق اعتدال وقوام ؛ وفيما يرجع إلى العلاقات الاجتماعية ، فالتضامن والتراحم بين المسلمين ، والناس عامة .

هذا هو الاسلام ، وهذه العروة الوثقى التي لا انفصام لها بين المسلمين كافة . فبمقتضى ذلك يجب أن نربي النشء ، وننظم شؤوننا في المجتمع ، حتى نقدر على السيطرة على معضلة هذا العصر : وهي التوفيق بين الأصالة والتطور ، أو ، بعبارة أصح ، الجمع بين تنمية الذات والنهوض بأوضاع المجتمع .

جبر العلاقة بين الدين والدنيا

من كلمة الافتتاح للحلقة الدراسية في توحيد مداخل الشهور القمرية التي عقدتها الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية في تونس (3رجب 1383 – 18نوفمبر 1963)

يحق لنا أن نعتبر اهتمام الدول العربية بضبط الأشهر القمرية بادرة تاريخية من أهم ما صدر عن مجتمعاتنا الاسلامية الحديثة ، في خصوص تنظيم شؤونها على أسس محكمة ، لا فحسب في النطاق السياسي ، بل أيضا في المجالات الاجتماعية والثقافية والروحية ، التي هي عماد النهضة والتقدم .

ذلك أن الاسلام لم يفرق بين شؤون الدنيا ومسائل الدين . وأراد أن تكون حياة المسلم على قواعد متضامنة ، غير متنافرة . وأراد أن يكون المسلم إنسانا

كاملا : يعيش حياته حسب تعاليم روحية وأخلاقية لا كسر فيها ، ولا شطط .

ومن فضائل هذا الدين ، الذي أتى باليسر وأمر به ، أن كانت أوامره ونواهيه غير معارضة للعقل ولا مُعْرِضة عنه . لذلك رأينا السلف الناهض من أجدادنا يستعمل آلة العقل ، ويحكِّم الرأي في كل ما دعا الدين الى التدبر فيه ، ويأخُذ بالاجتهاد في كل ما سكتت عنه الشريعة .

ولما كان الله تعالى لم يجعل فقه دينه وقفا على فئة دون سواها ، بل جعل أمر المسلمين بأيدي أولي الأمر فيهم ، مع استشارة أهل العلم ، كان من المتأكد عقد مناظرات للنظر فيما قد يحتاج الى النظر ، لزيادة الضبط، وتوحيد مواقف المسلمين ، في مغارب الأرض ومشارقها ، تجاه ما يهم حياتهم الاجتماعية و الدينية .

ومن الأمور التي يتأكد ، في عصرنا هذا ، أن ينظر فيها المسلم ، وإن تعلقت بنقطة قد تبدو جزئية ، قضية مداخل الشهور القمرية التي تسير عليها عدة

عبادات وفرائض أتى بها الاسلام .

وهي ، في الواقع ، إحدى المسائل الشائكة التي تُدخل على مجتمعاتنا شيئا من الارتباك ، وتفضي على بعض أعمالنا ، الدنيوية منها والدينية ، مسحة من الشك وعدم الاطمئنان ، لتمسّك الأغلبية بالاعتماد على الرؤية البصرية ، دون سواها ؛ في إثبات دخول الشهر.

والحقيقة أن طائفة غير قليلة من فقهائنا ، الأقدمين والمحدثين ، يجيزون الاعتماد على وسائل أخرى ، أكثر نجاعة وصحة ، معتبرين رؤية الهلال بالعين من العادات التي جرى عليها السلف ، وليست من الأمور التعبدية ، وإنما هي تكليف بأيسر الأسباب ، ومن أقرب السبل ، بالنسبة الى عصر النبوة .

وقد أدخل التمسك بالرؤية على مجتمعاتنا الحديثة من الضيم ، وقلة الجدوى أحيانا ، ما لم يبق للسكوت عنه مجال .

فنحن ، اذا اعتبرنا البلد الواحد ، وجدنا أن

الاعتماد على العين الباصرة من الأمور التي لم تعد متماشية ونظام عيشنا الحالي ، لطغيان الحياة المدنية ، وتضاؤل الخبرة بمجاري الأهلّة بين أهل البلد . ولذلك نرى الحيرة تسود حياة المجتمع بأكمله ، كلّما أشرف على عيد من أعياده ، أو أقدم على أداء فريضة من فرائض الدين .

هذا اذا نظرنا الى حالة بلد بمفرده ؛ فاذا اعتبرنا البلدان الاسلامية مجموعة متكاملة ، رأينا أن ما كان يمكن احتماله بالأمس حين كانت المواصلات بين الأقطار ، برا وبحرا ، بطيئة جدا ، أصبح أمرا ممكنا اليوم ، وقد تهيأت للمواصلات أسباب عجيبة قضت على المسافات ، وجعلت المسلم في أقصى المغرب يتلق في لمح البصر أخبارا تذاع من أقصى المشرق ، وتنبئه بحلول العيد في بلد من بلدان العالم الاسلامي .

والذي نشاهده في أغلب الأحوال هو أن شعوبنا الاسلامية قلّ أن تحتفل بعيد من أعيادها في يوم واحد ، وهو ما يضعف إحدى الروابط التي كان ينبغي أن تكون قائمة باستمرار بين المسلمين ، جميعا .

فإذا احتفالاتنا الاسلامية التي كانت الغاية منها جمع شتات الأمة ، وتوحيد قلوبها وإظهار قوتها ، إذا هي تتحول الى أعياد جهوية متفرقة ، لا تنعكس فيها على الوجه الأكمل تلك المغازي التي جعلت من أجلها .

هذا إضافة الى أن التواريخ الهجرية تكون ، بحكم هذا الوضع ، غير متطابقة في كامل البلاد الاسلامية ، ويعتريها من التناقض ما لا يمكن احتماله في عصر من مقتضياته الدقة والضبط .

تلك هي الحالة التي عليها مجتمعاتنا اليوم ، من جراء أخذنا بشيء كان في عصرٍ ما هو الأيسر ، بالنسبة الى أمة لا تكتب ولا تحسب ، تغلب عليها البداوة ، ولم تؤت من العلم الا قليلا ؛ فأصبح ، في وقتنا هذا ، عين العسر ، ومظهرا من مظاهر ضعفنا عن مسايرة الركب الحضاري ، اذ توفّر للبشريّة من أسباب المعرفة والفنون العلمية ما به استطاعت الأمم المتقدمة أن تطاول الأقمار ، وتغزو الفضاء الكوني بتلك الهمة ذاتها التي نحن أول من دعي اليها في الأثر القائل : «لو تعلقت همة ابن آدم بما وراءَ العَرْش لنَالَهَ» .

واذا أمعنّا النظر في هذا المشكل ، رأينا أنه أوسع من أن يكون مرتبطا بمسألة بعينها ، بل هو يتعلق بنظرتنا الى الدين ، وارتباطه بمسائل المعاش والاجتماع ، ويتعلق ، على وجه الخصوص ، بكيفية فهمنا للرقي العلمي والتقدم الحضاري ، في كنف الدين الاسلامي .

فمنذ أن بدأت النهضة عندنا ، لا نزال نجهد في اقتباس ما أمكن من طرائق العلم والفنون ، ومرافق الحياة الجديدة ، للقضاء على أسباب التخلف . الا أن هذا التقدم ، الذي نحصل عليه بدرجات متفاوتة ، كأنه لا يندمج في صلب حياتنا الفكرية والروحية ؛ وكأنه ، بخاصة ، لا يرتبط بحياتنا الدينية ، أو هو يبقى على الهامش منها : فيقبل بالضرورة ، ولا ينصهر مع بقية مقومات شخصيتنا الروحية ؛ فلا يرتبط الحوار بين «العلوم الدينية» وجملة المكاسب الذهنية التي بها استُكْشِفَتْ مُغَلَّقات الكون ، أرضا وفضاء . وهي في الحقيقة علوم كان تعاطاها أجدادنا الأولون ، بعد أن أخذوها عن القدماء ، وسموها «بالعلوم القديمة» وفهموا أهميتها ، وساهموا في تطويرها ؛ وقد بقي ذلك في التاريخ مفخرة لهم ، وشاهدا على أحفادهم الذين

أتلفوا هذا التراث ، ونسوا أوامر الاسلام الذي يحث على طلب العلم ، والتفكير في شؤون الكون .

وعن هذه المنزلة التي نخص بها المكاسب الحضارية الدخيلة ، نجمت ، في مجتمعاتنا الاسلامية ، قطيعة بين مستويين يعيش المسلم بينهما ، ولم يهتد الى التوفيق بينهما: مستوى العقائد والتقاليد والعادات التي توجه حياته الروحية ، ومستوى الضروريات المتجددة التي تسيطر على حياته العمليّة .

وإنه لمن المتأكد أن يسعى المسلمون الى حلّ هذه المشاكل التي تدخل على حياتهم التقطع والتمزق . ولا يكون ذلك الا بإعمال العقل فيها ، ومجابهتها بالفكر والاجتهاد ، وقد دعاهم الدين الى ذلك ، بل حثّهم عليه ، حتى يكون المعاش مرتبطا لديهم بالمعاد ، وحتى تزول الجفوة المفتعلة بين الدين والدنيا ، أي بين الروح والعقل .

الدين والمجتمع

من خطاب ألقي ليلة القدر " 26 رمضان 1397 – 10 سبتمبر 1977" للاحتفال بيوم القرآن الكريم بجامع سوسة .

في مثل هذه الليلة نزلت أولى آيات الذكر العزيز .

ونحن اذ نحيي ذكرى هذا الحدث الجليل الذي أفاض على الكون هديا ساطعا ، فانما ذلك بقصد الاقتباس من أنواره الخالدة ، إذ القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي ظل محفوظا منذ تنزيله ؛ وقد قال عز وجل :

«إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا لهُ لحافظون» (1)

1. سورة الحجر الآية 9

ومن إعجاز القرآن أن بقيت اللغة التي نزل بها محفوظة من التغيير ، الذي يؤول إلى التشويه ، بانحراف الكلمات عن لفظها الأصلي أو انسلاخها عن معانيها الأولى ؛ بينما سنة الله في خلقه أن تعيش اللغات مدة من الزمن ، ثم إذا هي تتقلص فتندثر . أما لغة القرآن فبقيت مفهومة ليوم الناس هذا ، مع ما كتب لها من تطور ونموّ واتساع لم يشوه هيكل لفظها ، ولم يطمس من جوهر معانيها .

وأعظم من ذلك إعجازا ما يتضمنه الكتاب من عبر ومواعظ لم تفقد قوتها ونضارتها ، مهما تقلبت الأحوال، وتطور العقل ، واتسعت المعرفة .

وهو ما ينبغي أن يتأمل فيه شباب هذا الجيل ، ممن يتبادر الى أذهانهم أن الدين قد «تجاوزته الأحداث» ، وأن العقل الانساني ، اليوم ، يأنف من الخضوع لمُعَمَّيات الإيمان .

والدين ليس منافيا للعقل ، ولا فيه ما لا يتماشى وحياة العصر ، بشرط أن نأخذ الدين كما أتى به

الرسول، عليه الصلاة والسلام ، وكما نهج له الخلفاء الراشدون ، وكما شرع له السلف الصالح المجتهد .

فإذذاك يصبح الدين تكملة للعقل ، اذ هو يجيب عن أسئلة ليس للعقل أن يجيب عنها ، لأن العقل آلة منصبّة على الكون ، بينما الدين يشير الى الغيب ، أي الى ما وراء الكون .

ولئن كان العقل قادرا على تفسير مغلَّقات الكون، من حيث هي مظاهر متناسقة مترابطة ، فهو عاجز عن إدراك منشئها ومآلها . لذلك كان العلم متعلقا بالكيفيات ، وليس من شأنه أن يبحث في الأصوليات.

وقد ذهب الكثيرون في البلاد المتخلفة الى أن الدين إنما هو عرقلة في سبيل التقدم والحضارة والعلم . وهو خطأ محض ، وخلط بين الدين وما ليس من الدين، لأن التخلف قد يكون من أسبابه التعلق بهنات ومعتقدات تنسب الى الدين ، ولكن الدين منها براء ، في جوهره ، وفرائضه ، وجملة ما يأمر به وينهى عنه من أعمال ومعتقدات .

والذين يذهبون الى هذا الادّعاء ، إنما اشتبهت عليهم شؤون الاجتماع بشؤون الدين ، فنسبوا الى الدين ما هو راجع الى أسباب وعوامل اجتماعية صرف .

وليس أبلغ في الرد عليهم من الاحتجاج بما فعله أول انسان قصد القمر – وهو ينتمي الى أكبر الأمم شأنًا في كافة ميادين الحياة والعلم والحرب – إذ قرأ سورة الخلق من الكتاب المنير ، تبركا ، واعترافا بعظمة الخالق وحقارة الانسان في هذا الكون الفسيح .

ولا يقولون أحدهم : «هؤلاء ، المسيحية دينهم» ، فليس ، من بين الديانات ، ما أشاد بالعقل مثل مافعل الاسلام ، دين الفطرة ودين العقل ودين العلم . ولنتذكر العصور الذهبية التي كان للمسلمين فيها ، مع السؤدد ، الزعامة الحضارية والعلمية ، على الإطلاق ، بفضل ما تهيأ لهم من حيوية وفحولة في الطلب .

ولئن خيّل الى بعضهم أن الاسلام دين يصدّ عن التقدم والعلم ، فذلك لأن المجتمعات الاسلامية طرأت عليها ظروف تاريخية أفضت بها الى الانحدار والتقهقر والانحلال.

وليس من شك أن الدين ، باعتباره ظاهرة اجتماعية ، إنما هو بحسب مستوى الذين يدينون به . فكما أنه لا يستوي في ذلك رجال العلم والعامة ، وليس «دين العجائز» والدين الحنيف سواء ، كذلك لاتستوي المجتمعات الاسلامية في عهود الازدهار والتي تلتها أثناء القرون الوسطى .

فالدين معتقد ، وعبادة ، وأخلاق ، معا : وحدة ، بدون تفرقة ولا ميز . أما المعتقد فهو القاعدة الأساسية التي بها يدخل الانسان في دائرة الإيمان ؛ وأما العبادة فقربى الى اللّه عز وجل ؛ وأما الأخلاق فهي إشعاع هذه وذاك في سلوك المؤمن مع نفسه ومع غيره . وقد وصف اللّه عزّ وجل المؤمنين المتقين بأنهم "**الذين يؤمنُون بالغيب ويقيمُون الصلوات ومما رزقناهم ينفقون**" (1) .

ولما كانت الأخلاق مرتبطة بمختلف الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الناس ، وتتكيف وتتطور

1. سورة البقرة الآية 3

بمقتضاها ، فواجب على المؤمن أن يصرّف أعماله بحسب ما يطرأ من دوافع ، هي وليدة بيئته ، ومن خصائص زمانه . لذلك كان من المعقول التعمق في إدراك الواجبات الأخلاقية ، والاجتهاد في الربط بينها وبين المعتقدات والعبادات . بل إن هذا الربط لابدّ منه ، ليزداد الإيمان رسوخا ، والعبادة طهورا وزكاء .

وبذلك ندرك وظيفة الاجتهاد في الدّين ، والمدى المفتوح له ، دون حرج ولا شطط .

فلئن كانت الأعمال التعبدية إنما هي بالنقل ، باعتبارها جملة من النواهي والأوامر تربطنا بهيبة الحضرة الإلهية ، فالأخلاق مجالها المعاش والعلاقات الاجتماعية ؛ ولا حرج من التوسع في فهمها ، والتعمق في إدراك أسرارها ، والاجتهاد في استنباط وجوهها الزكية ؛ بل إن ذلك لمن أقدس واجبات المؤمن القادر على الاجتهاد ، أي الذي تتوفر فيه شروط الاجتهاد : من صدق الإيمان ، واتقاد الضمير ، وصفاء الفكر ، وسعة العلم .

وبذلك يتضح معنى التحريض على التدبّر والتفكر، الوارد في الكتاب في غير ما موضع ، دعوة للبشر إلى إعمال الرأي ، حتى يدركوا أن اللّه حق، ويسلّموا بالغيب ، ثم يصنّفوا أفعالهم بحسب ما يقتضيه الإيمان من ضمير .

فارتكاز الأخلاق إنما يكون على الإيمان ، إذا أردنا أن لا تكون الأخلاق الفاضلة مقصورة على قلة ضئيلة من الناس يجدون في راحة الضمير ما لا يجده غيرهم .

إنما ارتكاز الأخلاق على الإيمان الذي هو ثقة باللّه، وتقرب اليه ، وسعى الى التخلق بما يرضيه ، جل جلاله ، حتى تكون العلاقة بين الانسان وخالقه متصلة دوما ، بلا انقطاع .

وإن هذه الصلة الدائمة لهي كنه العبادات الاسلامية ، وجوهر الأخلاق المحمدية ، وهي ملخّصة في قوله تعالى : «ومن يُسلم وجهه الى اللّه وهو محسن فقد إستمسك بالعروة الوثقى" (1) .

---

1. سورة لقمان الآية 22

ذلك أن المؤمن يقيم وجهه للدين حنيفا ، ابتغاء وجه اللّه ، ويحرص على أن تبقى بينه وبين الغيب ، دوما ، هذه «العروة الوثقى لا انفصام لها» التي بها يزداد الإيمان ويقوى .

وليس أبلغ في الدلالة على كلّ هذه المعاني من كلمة «الذكر» الّتي ترمز إلى ما يأتي من اللّه من «**ذكر للعالمين**» وما يقوم به الانسان من «ذكر اللّه» وهذان يجتمعان في الكتاب المطهّر الذي نحن نحيي ذكرى نزوله، وقد قال عنه اللّه عز وجلّ : «**وهذا ذكر مبارك أنزلناه** ... » (1) .

ذلك أن «الذكر» من المعاني القرآنية * الأساسية ، يشير الى جوهر الديانة الاسلامية القائمة على الشهادة بين الخالق وعبده ، بواسطة النبوة الحاملة للذكر ، إذ قال وقوله الحق : «**لتكُونُوا شُهَدَآءَ على النّاس ويَكُونَ الرَّسُولُ عليكُم شَهيدًا**» (2) .

---

1. سورة الأنبياء الآية 50
2. سورة البقرة الآية 143

كي لا يقترن الدّين في أذهان الناشئة بغير المعاني النيرة

من خطاب القي بمناسبة إختتام دروس المركز القومي لترتيل القرآن وتكريما للدفعة الأولى من خريجي المركز "جامع القصبة – تونس في 18ربيع الثاني 1389 – 3 جويلية 1969»

من أهم ما تجدر الإشارة اليه ، في خصوص إذكاء جذوة الإيمان ، وتحريك ما سكن من الاجتهاد فيما بين الدين والدنيا من شؤون ، أن الأمر يتعلق ، معا ، بحماية المعتقد ، وتيسير العبادات ، وإحياء التقاليد؛ وذلك لما يربط بين هذه العناصر الثلاثة من تضامن قويّ ، لا يمكن معه الاستغناء عن أحدها ، فيتهافت صرح متماسك الأجزاء ، يشمل أركان الحضارة ، ودعائم الأخلاق ، ومنابع الإيمان .

ذلك أن الدين عامّة، والاسلام خاصّة ، إن هو

يقوم على علاقة الفرد بخالقه ، فهو يتجاوزها الى أبعاد يلتقي فيها الناس جميعا : مؤمنين ، متضامنين في السّراء والضّراء ، مخلصين له الدين ، في شعائر وتقاليد هي عماد المجتمعات البشرية ، بها ترتفع مشاعر الانسان وتنتظم أعماله ، وبها تزكو الحضارات وتنمو على مر الأزمان .

ولئن كانت المنزلة الأولى في الدين للمعتقدات ، ولئن كانت للعبادات أهمية كبرى باعتبارها رواسي للحياة الدينية ، فللتقاليد أيضا وزنها في تكييف السلوك، لما تضفي عليه من مشاعر لعلها أسبق الى النفوس ، وأعلق بها ، وأنفذ الى قراراتها .

ومن هذه التقاليد ما يرجع الى العادات الجماعية التي تركّز معنى الأمة ، بتهيئة أسباب التلاقي بين المؤمنين ، على نحو ما يحصل من إقامة بعض العبادات ذات الصبغة الجماعية : كالحج ، وصلاة العيدين ، وصلاة الجمعة .

ومنها ما يتصل بإذكاء الشعور الديني ، بواسطة

عوامل وجدانية مختلفة الألوان ، تفيض لها النفوس اريحية ، فاذا اشتد بها الطرب ، تفتّحت مسالكها لهواجس الغيب .

والاسلام لم ينكر هذه الوسائط الجمالية ، بل أقر فائدتها ، ورأى استعمالها ، بشرط عدم المغالاة . ذلك أن للجمال عبرة ، وله تأثير في النفوس وردت الإشارة اليه في كتاب اللّه تعالى في مواطن تفيد التزكية ، كقوله تعالى ، في سورة النحل : «**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**» (1) .

ومن هذه الوسائط الفنية ما يعود الى فنون اللغة والأدب ، فيعمد الى إحداث الأريحية الجمالية عن طريق فصيح الكلام ، وبليغ التعبير ، ولطيف البديع . وقد حظيت هذه الواسطة ، في الاسلام ، بأعلى مرتبة ، إذ جعل اللّه كتابه إعجازا مطلقا ، الى يوم الدين . وقد أسلم أقطاب من قريش ، متأثرين ببلاغة القرآن ، اذ ألان اللّه قلوبهم بعد صلف وكبرياء ، فأفعمت

1. الآية 6

بالجلال، وأخذها الطرب ، وتملّكها الخشوع ؛ فاستشعرت الغيب من خلال ما يتلى من كلام الرحمان، وقد جعله اللّه لها منفذا الى الإيمان .

ولئن كانت الناحية الأدبية من إعجاز القرآن متجهة خاصة الى الذين يفقهون أسراره البيانية ، ويتذوّقون محاسنه البلاغية ، ويدركون جلال معانيه السرمدية ، فإن ترتيله بأصوات جماعية ، وبألحان مؤثرة شجية ، يحدث في عامة الناس من الطرب العنيف ما تفيض له المشاعر ويساعد على تركيز الإيمان . وما اتخذته الصوفية المعتدلة من أذكار وأعمال ، إنماهو داخل في هذا الباب . وقد أشار الى ذلك العارفون ، اذ وصفوا بالتجلّي ما يحصل لأفذاذ المريدين من تصاعد روحاني ، وإدراك مرهف لمعان مغلّقة دون غيرهم . وتأثير الأصوات والموسيقى ، في تغذية الشعور الديني ، معروف في حضارات كثيرة .

ثم هل يمكن الفصل بين الدين وشعائره ، وبين المباني التي ترفع من أجله ؟ فللهندسة المعمارية ، في كل الديانات ، دور في استجمام المشاعر والإيحاء بالجلال .

وكذلك الأمر في الاسلام : فالمساجد ، عندنا ، اذا نظرت اليها من بعيد . ألسنة منطلقة الى عنان السماء ؛ وهي ، اذا دخلتها ، دعة وسكون .

والمقابر ، في الاسلام تُتخذ في أفسح الميادين . وكثيرا ما تكون في منطلق الرُّبى ؛ فيستشعر فيها الزائر لمحة من لمحات اللانهاية ، ويتطلع منها الى أفق من آفاق الغيب .

ذلك أن الدين معتقد . وحضارة ، وثقافة ، معا ، دون إمكان الفصل بينها . وللثقافة والحضارة مقومات ذهنية ووجدانية ، وأيضا لا شعورية ؛ ولا سبيل الى تفكيك هذه العناصر الا بالنيل من الكل ، والطمس من ينابيع الخيال ، والحد من هذه النفحات الروحية التي تعبق بها الديانات ، وبها شرف الانسان على سائر الكائنات .

ومن الأخطار المحدقة بالحضارات الدينية اختلال التوازن بين مختلف المقومات الذهنية والوجدانية واللاشعورية ، بطغيان بعضها على بعض ، أو بتحجّر

أحد عناصرها ، فيصبح كالعضو الأشل ، لا يقوى على القيام بوظيفته .

فكل هذه العناصر مدعوة بالضرورة الى التطور ، حسب الأمصار والعصور ، حتى تواكب دوما تطور المحيط الاجتماعي العام الذي اليه تنتسب . ولكن ينبغي أن تتطور جميعا في تناسق حكيم ، دون تفاوت بينها ، حفاظا على تماسك لحمتها ، وتآلف وحدتها : فلا يكون العنصر الفكري متقلصا ، فيتخلّف عن حضارة العصر؛ ولا يكون العنصر الوجداني يابسا ، فيُتَّخذ هُزُوًا ، عوض أن يكون مصدر تأثير عميق ، وإشعاع وهّاج ، على الدوام .

لذا ينبغي أن لا تغيب عنّا هذه الاعتبارات ، عندما نتصدّى لإحياء التقاليد الدينية ذات الطابع الفني، حتى نجعلها مواكبة لنفسية العصر وأذواق الجيل، بتطوير الأشكال والمظاهر العرضية ، مع الحفاظ على الجوهر الذي هو حيوية الشعور الديني . فالناس ، عامة، شديدو التأثر بالمظاهر الحسية ، وبخاصة منهم الشباب : فهم أشد الناس تأثرا بالجمال ؛ وهم أيضا

أشد الناس عزوفا عن مظاهر الوهن والتخلف وانحطاط الذوق . فمن أوكد واجباتنا ، حينئذ ، أن ندرك أن تلقين الشباب أُولى بذور الشعور الديني إنّما هو عملية في منتهى الدقة ، لغلبة العناصر العاطفية واللاشعورية فيه ؛ فهي لذلك تتطلب عناية فائقة ، حتى لا يقترن الدين ، في أذهان الناشئة ، بغير معاني الفكر النيّر ، والجمال الصافي ، والعمل الزكي .

من خصائص الظُهور الالهي

من خطاب القي ليلة القدر "26 رمضان1391 - 14 نوفمبر 1971" للاحتفال بيوم القرآن الكريم بجامع سوسة .

الدين الاسلامي دين حنيف : أي هو دين اعتدال ، لا ميل فيه ولا إسراف ؛ يهدي الانسان الى سبيل اللّه ؛ وهو بذلك يهديه ، أيضا ، الى ما ينفعه في معاشه وعاجل حياته .

وإنما ، فيما يقوم عليه الهدي الاسلامي من اعتدال بين المشاغل العاجلة وشؤون الآخرة ، ضمان ما يصبو اليه الانسان من سعادة ، لا تكون بالتفريط في شؤون الدنيا ، ولا بأن يستحب الانسان الحياة الدنيا على الآخرة ؛ بل هي في الجمع بين هذه وتلك ، أسوة

بالدعاء القرآني المبارك : «**ربّنا ءاتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**» (1) .

وحياة الانسان ترتكز على ثلاث دعائم بها سعادته، وبدونها لا يستقيم له اجتماع ولا رقي : وهي العقل والأخلاق والحضارة .

والذي نريده ، في هذا الحديث ، هو بيان كيف أن هذه الدعائم الثلاث مرتبطة فيما بينها ، وكيف أن ثلاثتها مرتبطة بالإيمان ، متوقفة عليه ، منخرمة بدونه .

أما الدعامة الأولى ، فهي العقل الذي هو شرف الانسان على سائر الكائنات . والآيات القرآنية التي تشير الى أهمية العقل كثيرة تكاد لا تحصى ، وهي تدعو الى إعمال الروية ، والتدبر في الأمور كلها ، دون استثناء ، سواء منها ما يخص المعاش ، وما يهم المعاد . بل إنه يمكن القول بأن القرآن يعتبر العقل عماد الدين : به «يعقل» الانسان حقائق الكون ، وبه «يدرك» افتقار

1. سورة البقرة الآية 201

هذا الكون الى خالق حكيم يتجاوز كل المحدثات ، ولا يحتاج هو الى أي كان ؛ خالق ليس كمثله شيء .

وفي ضوء هذا المنطق ، فان العقل هو الذي يملي على الانسان هذه الحقيقة السرمدية : «قل هُو اللّه أحد، اللّه الصّمد ، لمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ ، ولم يكن لهُ كفوًا أحد» .

العقل هو الذي يسمو ، من الكثرة المرتبطة بأوضاع وظروف ، الى فكرة الواحد المطلق الذي لا يتقيّد بقيد ، ولا يشرط بشرط .

وقد يتبادر الى بعض المعترضين أن عصر النبيء ، عليه الصلاة والسلام ، كان فيه التدبر هينا سهلا ، نظرا الى حال البساطة والسذاجة التي عليها البشر آنذاك . فلما تطور العلم ، وتمكن من كشف الستار عن العديد من أسرار الكون ، فإنه لم يعد مجال للتعجب ، ولم يعد التأمل في شؤون الكون مبعثا للاستغراب ، حتى تحمل النفوس على الإيمان بقوة عليا ، خارقة للنواميس والعادات . فالانسان ، اليوم ، يحيط بالكثير من

عجائب الكون ، علما وفهما ، واثقا من قدرته على النفاذ الى أسرار الكائنات ، على مراحل متتالية وربما متقاربة .

والرد على هذا القول هو أن أساطين العلوم الحديثة يقرّون بأنه ، لئن كان العلم في مقدوره أن يحيط بعالم المظاهر والأحداث ، فيما بينها من علاقات سببية ، فهو لا يستطيع أن ينفذ الى السببية الأصلية لكل وجود. وبعبارة أوضح فان للعلم أن يفسر العلل والأسباب ؛ ولكنه عاجز عن إدراك علة الكون الأولى ، اي هو عاجز عن أن يعلل وجود كون ما .

هذا من ناحية فلسفية نظرية . ثم ان العلماء ، اذا ما تأملوا في حصيلة أعمالهم ، فانهم يجدونها تفضي ، أحيانا كثيرة ، الى ابراز مشاكل تزيدهم تساؤلا وحيرة ، بما تكشف من حقائق عجيبة ، مذهلة «في الآفاق وفي أنفسهم» .

أما «في الآفاق» ، فازدهار العلوم الفلكية قد كشف عن أوساع لا يحد مداها ، ولا يحصى ما فيها .

وهي ، على ظن العلم الحديث ، في اتساع دائم وتفتق متواصل ، كأنها عملية الخلق لا تزال مستمرة الى يومنا هذا . وما ذلك على اللّه بعزيز ، وهو القائل : «**أنّ السماوات والارض كانتا رتقًا ففتقناهُما**» (1) .

وأما «في أنفسهم» ، فَشُعَبُ العلم الحديث قد أظهرت ، في أحشاء الانسان ، من عجيب الدقة ، وحكيم الترتيب ، ما لا يمكن فهمه بدون رجوع الى قوة خالقه ، وإرادة منظمه . وقد برهن علم الحياة عن أن المادة متركبة من خلايا ، وأن في كل خليّة نواة ، هي مركز لتعليمات متعلقة بالمستقبل . أما الخلايا التناسلية فتتركب من بسائط حية ، كل واحدة منها بها مجموع التعليمات اللازمة لإنشاء جسد مماثل لخلق أحد الأبوين. وفي ذلك مصداق الآية الكريمة « **أفرأيتم ما تمنون ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** ... (2)»

ولقائل أن يقول أيضا : هذا النظام ليس دوما

---

1. سورة الأنبياء الآية 30
2. سورة الواقعة الآيتان 58، 59

كامل الشروط ، إذ كثيرا ما ينخرم انخراما .

وهنا لا يسعنا الا تأكيد عجز العقل عن الحديث في أمور لا تدخل تحت طائلته ، اللهم الا ما احتج به المعتزلة ، منذ أكثر من عشرة قرون ، من أن انخرام النظام ، أحيانا ، هو نفسه حكمة ، اذ فيه تحريض على التدبر . وأن ما في الكون من نقص شرط لقيام التدبر ، الذي هو من خصائص العقل . ولما كان العقل عنوان حرية الانسان ، في التمييز بين الأمور ، وإدراك الحقائق الإلهية ، فان النقص يصبح حكمة ، والانخرام ينقلب نظاما .

فلو كانت الأمور كلها على نسق واحد مما نعتبره كمالا ، لجمدت فضيلة العقل ، ولانتفت حرية الانسان . ذلك أن من خصائص الظهور الإلهي في خلقه أن يكون على نحو من الوضوح والخفاء، معا ، يتسنى معه قيام الحرية في الانسان ، وابتلاؤه من قِبَل خالقه ، عز وجل ، اختبارا له وفتنة .

فعلى العقل أن يتبين الإشارات الواضحة ، من خلال ما يلابسها من فتنة وما يغشاه من ريب ، حتى ينفذ الى آيات اللّه في خلقه .

ومن آياته هذا القرآن العجيب ، الذي يهدي به الى صراطه المستقيم ؛ ولكنه ، أيضا ، " **يُضِلُّ به كثيرا ويهدي به كثيرا ، وما يُضِلُّ به الا الفاسقين**"(1) .

فالعقل ، إذن ، طريق الهداية ، ما اتبع بعدل ، وعفة ، وصلاح . فإذا غشيه الظلم والفسق ، زاغ عن قصده ، وتاه في ظلمات الشك : «**واللّه لا يهدي القوم الظالمين**» (2) ، «**واللّه لا يهدي القوم الفاسقين**» (3) .

ولكن اللّه له ، سبحانه ، مطلق الحرية أن يهدي

---

1. سورة البقرة الآية 26
2. سورة الصفّ الآية 7
3. سورة الصفّ الآية 5

الى نوره من يشاء :

«اللّه يجتبي اليه من يشاء ، ويهدي اليه من ينيب»(1) .

ولكأن العقل ، اذا ما أعمل دون استناد الى الإيمان ، بقي خداجا ، مبتور القوة ، إذ هو ينحصر مداه في مظاهر الأحداث ، لا يبصر من خلالها آيات اللّه ، ولا يدرك إشاراته ، ولا يمتد قصده الى ما وراء الكون : فهو محصور في الدائرة الدنيوية ، مشرب بكبرياء الطلب ، وصلف الطموح . فالعقل يرتطم بصخور التيه والإنكار .

فالقرآن ، إذن ، يحرّض على إعمال العقل على النحو الأكمل الذي يجعله يحيط بالواقع ، ويتسع الى ما يتجاوز نواميس الواقع . فيقف عند أبواب الغيب ، مشيرا اليها ، مقرا بعجزه عن طرقها . ولا يكون ذلك الا انطلاقا من الإيمان باللّه ، ومحبة اكتشاف حكمته في

1. سورة الشورى الآية 13

خلقه . وعندئذ يصبح الإيمان سموا بالعقل ، وتأكيدا لشرفه ، بالاهتداء الى ما يتجاوز طاقته .

أما الدعامة الثانية ، في حياة البشر ، فهي الحضارة ، التي هي من صنع العقل البشري ، والتي بدونها لا يحقق الانسان ، بالفعل ، هذا الشرف الذي له على سائر الكائنات . والحضارة وليدة الجهد البشري، في تظافر بين العقل والإرادة والخيال ، لإخضاع المحيط الطبيعي ، وبناء حياة جماعية تتوفر فيها شتى المرافق المادية والذهنية . غير أن الحضارة ، لا يتم الحفاظ عليها الا بوازع من الفضائل الخلقية ، في مقدمتها التضامن والإحسان؛ فإذا هي ضعفت ، أخذ صرح الحضارة ينهار ، شيئا فشيئا .

فالأخلاق ، إذن ، هي الدعامة الثالثة التي لا تستقيم بدونها حياة البشر . ولا جرم أن خصصنا لها خاتمة هذا الحديث ، لنتبين قيمتها ونتعرف مصدرها .

فمن الفلاسفة من يقول بأن الضمير الأخلاقي

مستقل عن الدين ، ويجعلون حكمة الحكيم في استشعاره الخير والشر ، بوازع ذاتي في باطن نفسه ، دون حاجة الى ترغيب أو ترهيب .

والتاريخ يشهد أن الحضارات تؤول الى التقهقر والانحلال ، كلما تقلص فيها الدين ، في أسمى قيمه ، وأشرق معانيه ، فأصبح جملة من الطقوس المجمدة القاسية ، او هو أصبح هيكلا أجوف ، لا إشعاع له ولا نفوذ على النفوس .

وكذلك ، أمامنا ، اليوم ، مجتمعات بلغت شأوا من الحضارة عظيما ، ثم هي ظنّت أنها في غنى عن الدين ، فإذا هي تتردى في صراعات محتدمة مع قوى العنف ، وصنوف الشر والأنانية ؛ واذا أركانها تكاد تدك ، كلما تفجرت فيها قوى الطاغوت والجنون . وسبب هذا الانتكاس ، إنما هو انهيار السدود التي كانت تقيمها العقيدة الدينية في النفوس وفي المجتمع ، وانسياب هذا السيل العرم الذي تشهده الأخلاق والقيم ، فتختلط السبل ، وينتفي التمييز بين الخير والشر .

ذلك أن هذه الشعوب اعتقدت أن لها أن تستبدل الأخلاق بالدين ، وأن تستعيض عن النواهي الدينية برادع الضمير .

ولكن ذلك ، في الواقع ، نظرية فلسفية ، قل أن يسمو الى تحقيقها البشر ؛ ولم يهتد شعب من شعوب الأرض ، حتى يوم الناس هذا ، الى إدخالها حيز الفعل، في مستوى الجماهير ، بعداد الملايين .

والقرآن ، الذي هو دستور الاسلام ، إنما جاء ليصلح حياة البشر ، بإقامتها على هذه الأركان الثلاثة : العقل ، والأخلاق ، وما ينفع الناس في سائر شؤون معاشهم . والقرآن هو الذي جعل ، في الجمع بين هذه الأركان الثلاثة ، سعادة الانسان ، وسبيل الظفر بالآخرة ، اعتبارا منه أن الدين إنما هو الاستقامة ، وأن الاستقامة لا تكون الا باجتماع العقل والأخلاق ، صدورا عن الإيمان ، واتجاها الى إصلاح المعاش .

تلك هي الاستقامة التي كثيرا ما نجدها مقرونة بالإيمان ، في الآيات والأحاديث ، والتي تشير اليها ،

أبلغ إشارة ، العبارة القرآنية : «**فأقم وجهك للدين حنيفا**» (1) أي معتدلا . والاستقامة لا تقف عند إتيان المأمورات ، واجتناب المحظورات ، بل هي تشمل جميع سلوك الانسان ، قولا ، وعملا ، ومعاملة ، حتى تكون حياته نقية ، قيّمة ، حنيفة — أي معتدلة .

والقرآن هو الذي يهدي الى «دين القيّمة» أي دين الاستقامة ، إذا أحسن فهمه وتلقينه للنابتة من الشبان : لا إفراط ولا تفريط ، ولا شطط ولا صلف ؛ وإنما اعتماد خلق القرآن ، الذي كانت عائشة ، رضي اللّه عنها ، تنسبه الى النبيء صلى اللّه عليه وسلم : وهو خلق قوامه سماحة الفكر ، وطهارة القلب ، واعتدال السلوك .

وهل أتى بأكثر من ذلك الذين تفلسفوا في شؤون الانسان ، ونهجوا المناهج الملقبة بالانسانية ، بينما القرآن ، منذ أربعة عشر قرنا ، لم يزل يهدي الى التي هي أقوم ، مستنبطا لفظا خاصا لتسمية الذات البشرية — بقطع النظر عن كونها رجلا أو امرأة — وهو لفظ

1. سورة الرّوم الآية 30

«الانسان» ، غير مضطر الى أن يشتق من احدى تسميات الذكر ما يطلق على مجموع الجنسين . ولئن كان القرآن يصف الانسان بما فيه من عيوب — فهو ضعيف ، عجول ، كفور ، كنود ، قتور ، خصيم ، ظلوم ، جهول ، هلوع — فإنما ذلك ليدعوه الى التغلب على ضعفه ، ومساوئه ؛ فيغيّر ما بنفسه ، ويثوب الى خالقه ، حتى يكون بحق خليفته في أرضه : « **والعصر ، إنّ الانسان لفي خسر ، إلا الذين ءامنوا ، وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصّبر»** . وفي ذلك إشارة الى أن الإيمان لابدّ أن يقترن بالعمل الصالح ، والأخلاق الحميدة .

ونحن اليوم ، معشر المسلمين ، في حاجة الى مراجعة أنفسنا ، بتدبر القرآن والسنة ، على ضوء واقع عصرنا ، حتى نستوعب ، في ديننا ، أوضاع حياتنا ، ومضاعفات تفكيرنا ، وحتى نكيف سلوكنا بحسب ما نستنبطه من الكتاب والسنة ، في مثل خلق الرسول الأعظم ، عليه صلوات الله وسلامه ، أي بما كان يتصف به من فسحة الفكر ، وسمو الهمه ، ودائم الحرص على طهارة النفس : «**ومن أحسن دينا ممن**

أسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملّة ابراهيم ، حنيفا (1) » .

بذلك يكون الانسان المسلم خليقا بخلافة اللّه ، سبحانه وتعالى ، في أرضه ، دون ما صلف ولا جهل ، مؤمنا ، محسنا ، مسلما وجهه لخالقه « **الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم**»(2).

1. سورة النّساء الآية 125
2. سورة الحشر الآية 22

قواعد المجتمع الاسلامي

من خطاب الافتتاح للنّدوة الاسلاميّة الرابعة التي التأمت بالقيروان بمناسبة الذكرى النبويّة الشريفة « 6 ربيع الأنور 1398 – 14 فيفري 1978» .

لابدّ من التساؤل هل نحن محقون في اتباع أساليب في التنظيم ، وطرائق في التنمية ، هي مقتبسة من أمم غيرنا ، مباينةٍ لنا في التاريخ ، والتقاليد ، وبعضٍ غير يسير من القيم الحضارية . بل علينا أن نتساءل هل يمكن لمثل هذا العمل الذي يهدف الى إعادة تنظيم المجتمع ، لتفتيق طاقاته ، والدفع بها نحو مسالك من التطور والخلق لم تعهدها الانسانية في أي عهد مضى ، هل يمكن لهذا العمل العظيم الخطورة أن يبقى بمعزل عما تختص به مجتمعاتنا الاسلامية من تقاليد اجتماعية ، وقيم روحية ، ومبادىء أخلاقية ؛ هي بدون منازع ،

سجاف كل عمل انساني ، اجتماعيا كان او اقتصاديا او سياسيا .

والواقع أن علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد مجمعون على أن لا سبيل الى التفرقة بين أعمال التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، وبين هذه القوى الكامنة التي هي الرصيد الروحي لكل الشعب ، او كل مجموعة من الشعوب .

في هذا أود أن أتحدث ، صارفا الاهتمام خاصة الى ما بين الدين والمجتمع ، عندنا ، من صلات وثيقة، بعضها يظهر في تنظيم جوانب هامة من حياة الجماعة ، وبعضها يتصل بجملة من القيم الروحية والأخلاقية .

ولما كان الدين الإسلامي يعتبر الانسان خليفة اللّه في الأرض فإنّه لذلك يُعْنَى بتنظيم حياته الدنيوية ، ولكن في خطوطها العريضة ، مع ترك المجال فسيحا للاجتهاد وتحمّل المسؤولية . لذلك فإنّ أغلب التنظيمات القرآنية المتعلقة بالحياة تتلخص في مبادىء واتجاهات

عامة ، منها أربعة لها في نظرنا أهمية جوهرية .

أول هذه المبادىء العدل والابتعاد عن العسف والظلم ، حتى يشعر كل انسان بأنه في مأمن من البغي والعدوان . وفي الحديث : «المُسْلم أخُو المسلم لا يظْلِمه ولا يخْذُله ولا يحقِره» . فليس يستطيع مجتمع بشري ، في اي عصر ، أن يدوم وينمو ويزدهر الا اذا عمّت العدالة حياة المتساكنين ، على أُسس من الحكم يقرها العقل ، وتطمئنّ اليها المجموعة . وهي من أهم العوامل التي ثبّتت أركان المجتمع الاسلامي في عصره الذهبي .

ثم إن الشورى كانت ، من أوائل الاسلام ، مبدأ أساسيا لنظام الحكم ، مقرونا بمبدإ الإمامة ، مأمورا به في القرآن ، إذ قال جلّ من قائل : «**وشاورهُم في الأمر**» (1) وقال تعالى : «**وأمرُهُم شُورى بينَهُم**» (2). وانما لإهمال المجتمعات الاسلامية هذا المبدأ

1. سورة آل عمران الآية 159
2. سورة الشورى الآية 38

تسربت إليها بذور الفوضى ، حتى كادت الفتن من أجل الحكم أن تصبح هي القاعدة .

وفي عصرنا هذا ، اكتشفنا ، في أوروبا وأمريكا ، صيغا لتنظيم الحكم الرئاسي مع تشريك الشعب في المسؤولية . ولكن ، لو اتبعنا تعاليم الاسلام بأمانة ، لتطورت وضعية الإمامة وصيغ الشورى ، بما يجعلنا في غنى عن الاقتباس من الأمم الأجنبية .

وفي المجتمع الاسلامي يعيش المسلمون وغير المسلمين ؛ فكان الاسلام يدعو الى معاملة هؤلاء بما يحفظ عليهم مصالحهم ، ويوفر لهم مرافق العيش ، ويمكنهم من القيام بطقوسهم الدينية . ومعروف أن الوظائف في الدولة لم تكن موصدة دونهم ، بخلاف ما كانت تعامل به أوروبا المسيحية يهودها في العصور الوسطى . وبذلك يشهد أعلام من أكابر المؤرخين الغربيين ، مؤكدين ما كانت عليه المجتمعات الاسلامية من تسامح إزاء سائر الأديان والأجناس .

ثم إن صرح المجتمع الاسلامي يرتكز على ركنين ،

هما من أهم أركانه : الكدّ في العمل ، والتّضامن في المعاملات .

أما الكد في العمل ، فمعروف أن الدين الاسلامي دين عمل وعبادة ، معا . وقد أشاد الرسول، عليه الصلاة والسلام ، بفضل العمل ، حتى روي عنه أنه رأى يوما رجلا من الأنصار قد عمل حتى خشنت يده أو تورمت ، فسأله عن سبب هذا التورم، فقال : «إنه من أثر المسحاة التي كان يعمل بها ، حتى ينفق من عمله على أولاده» . فقال الرسول صلى اللّه عليه وسلم : هذه يدٌ لا تمسّها النار» .

بل لعله يقدّم العمل على العبادة ، اذ يعتبر العمل نفسه ضربا من العبادة ، ويراه أفضل ، حتى انه يجعل الرجل الذي يقوت عياله من كدّ يمينه أفضل من العابد الذي يلزم المساجد ، ويأكل من كدِّ غيره .

وكثيرا ما يخطىء الناس في فهم التوكّل المندوب اليه ، والتواكل المنهي عنه . فلئن كان الانسان مأمورا بالاستعانة باللّه والتوكّل عليه ، فليس له أن يمسك عن

الجد والاجتهاد ، فينتظر أن يأتيه رزقه ، وهو لم يبذل في السعي إليه أي جهد . فالانسان مأمور ، في نفس الوقت ، بالاجتهاد والتوكّل . وفي الحديث : «اعقلْها وتَوكّل» .

وبقدر ما يؤمر المسلم بالعمل المنتج ، فانه ينهى عن الارتزاق بوجوه غير منتجة . فصاحب المال حرام عليه أن يرتزق من الربا ، ولعل من أسباب تحريم الربا أن المرابي لا يقوم بجهد منتج لخيرات جديدة ، ولا يغامر في أغراض اقتصادية ، بل هو يكتفي باستغلال ماله ، استغلالا جامدا ، وكثيرا ما يكون ذلك بأفحش الصور — إضافة الى أنه يخل بالركن الثاني المشار اليه أعلاه ، وهو التضامن .

ولنفس السبب ، وظّف الاسلام ، على رأس المال ، أداء يجعل صاحبه يحرص على استخدامه في شتى الأغراض المنتجة ، كالتجارة ، والزراعة ، والصناعة ، عوضا عن اكتناز المال دون جدوى للمجموعة .

وعلى نقيض ذلك فان الارتزاق بالعلم مقبول ، أما الارتزاق بالدين ، كتلاوة القرآن مثلا ، فمنهي عنه. ذلك أنّ نشر العلم فيه إحياء لعقول وفتح البصائر، وهو ضرب من الإنتاج ، أمّا تلاوة القرآن للتبرك ، فانها من أمور الآخرة ، لا دخل لشؤون الدنيا فيها .

كل ذلك تأكيد لوجوب العمل ، وطرق أبواب الكسب الطّيبة ، أي المنتجة لخيرات تفيد الفرد والمجموعة .

أما ثاني الركنين المشار اليهما ، فهو التضامن بين كافة المتساكنين ووجوب التعاون بينهم والتآزر .

فمن أوكد تعاليم الدين عندنا احترام صلة الرحم وحسن الجوار . فالأحاديث النبوية الواردة في فضل ذوي القربى على غيرهم تكاد لا تحصى . وقد ذهب الرسول عليه الصلاة والسلام الى جعل الصدقة باطلة اذا كان الأقرباء في خصاصة . وأما الجار فقد قال عنه رسول اللّه عليه الصلاة والسلام : «مازال جبريل

يوصيني بالجار حتى ظننتُ انَّه سَيُوَرِّثُهُ» ، رفعًا لشأنه وإمعانا في النهي عن الإساءة اليه .

ذلك أن المجتمع متركب من خلايا عائلية ، كلّ خلية ينبغي أن يعمها الوئام وأن يشملها الرفاه . ثم إن كل خلية تجاورها خلية أخرى ، أو خلايا متعددة ، فلابدّ أن يكتنف العلاقات بينها الوئام ، وحسن الجوار، والتعاون على البرّ وما فيه المصلحة .

ذلك أنه ينبغي أن يعم كافة المجتمع تضامن ، في السراء والضراء .

أما في السراء ، فقد ندب الدين الى الإكثار من التلاقي بين المسلمين ، بالمساجد ، في الأعياد وغيرها . ولعل من أهم أسباب الفضل في صلاة الجماعة أنها تجمع بين المسلمين في ظروف واحدة ، لا فرق بين الغني والفقير ، ولا بين الرئيس والمرؤوس . وبذلك تتأكد لحمة المجموعة ، وتبرز فيها مشاعر التعاطف والتآخي .

وأما في الضراء ، فقد قال اللّه تعالى : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» (1) .
وجاء في الحديث : «مثَلُ المؤمنين ، في توادّهم وتراحُمهم وتعَاطُفهم ، مَثَلُ الجسد : اذا اشتكى منه عضو تداعَى له الجَسَد بالسهر والحُمَّى» .

فمن أوكد واجبات المسلم أن يمدّ يد المساعدة لأخيه المسلم المحتاج ، وأن يفعل ذلك عن صدق ، ولا يجد منه حرجا . لذلك سّميت تلك المساعدة بالصدقة رفعا من شأنها ، وإبرازًا لما يجب أن تتحلّ به من صدق وإخلاص ، وتنزيها لها عن الربا وعما اعتاده الناس من إعطاء القليل الحقير الذي لا يغني عن السؤال .

ولم يكتف الدين بأن جعل على المسلم واجب الصّدقة ، للفقير واليتيم وأبناء السبيل ، بل فرض الزكاة التي تدفع للإمام ، وتصرف في وجوه مختلفة ، لتحقيق مصالح المجتمع ، في السلم والحرب على

---

1. سورة التّوبة الآية 71

السواء . وفي القرآن «**خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها**» (1) .

فالزكاة طهور للمسلم ولماله ، لأنه ، إذ يخرجها ، يستجيب لأحد أوامر اللّه ، ثم هو بذلك يساهم في إقامة صرح المجتمع ، إذ جاء في الحديث : «إن اللّه فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم ، بِقَدر ما يسع فقراءَهم» .

فالزكاة ، اذن ، أداء يدفع الى صندوق الدولة الاسلامية ، حتى يسع حاجة الفقراء . وعن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسَلم قال : «ليس المسكين ... الذي ترده التَّمرةُ والتمرتان ، ولا اللقمةُ واللقمتان ، ولكن المسكين المتعفّف الذي لا يسأل الناس شيئا ولا يفطن اليه فيتصدّق عليه» .

وجاء في حديث آخر عن قُبيصَة بن مُخارق أن الزكاة لا تصح الاّ على أحد ثلاثة : «... رجل تحمّل

---

1. سورة التّوبة الآية 103

حَمَالَةً فحلت له المسألة حتى يصيب قوما من عيش (أو سدادا من عيش) ؛ ورجل أصابته جائحةٌ فاجتاحت ماله ، فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ؛ ورجل أصابته فاقة حتى يشهد ثلاثة من ذوي الحجى من قومه : قد أصابت فلان فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قوما من عيش (أو سدادا من عيش) ، فما سوى هذا من المسألة ، يا قُبيصة ، سُحْتٌ ، يأكلها صاحبها سُحْتًا» .

ومن هذا الحديث يؤخذ أن الزكاة صندوق تضامن بين المسلمين العاملين الكادحين ، وليست مالا يعطى فتاتا لأي يطلبه من العاطلين والشاحذين ؛ فهؤلاء ينهون عن البطالة ، ويؤمرون بالعمل ، وتمد لهم المساعدة لذلك ، لا لمجرد اللقمة العابرة . ويؤخذ منه كذلك ضرورة إقامة نظام شبيه بما يسمّى اليوم بالأمن الاجتماعي .

بذلك يتأكد لنا معنى هامّ من معاني المجتمع الاسلامي : العمل على إزالة الخصاصة وتوفير الغنى ، أي الكفاف ، لكل مسلم ، كل بحسب حاجته .

فالمجتمع الاسلامي مجتمع الكفاية والكرامة ، لا يقر الخصاصة ولا يرضى المسألة .

ولئن اختلفت أحوال الناس ، وكان بعضهم أقل يسرا من بعض ، فانما ذلك راجع الى اختلاف قواهم البدنية ، ومواهبهم الفكرية ، التي بها يكدون ويكسبون رزقهم .

وبذلك يتضح لنا جليا أن المجتمع الاسلامي غير مبني على الطبقات بالمعنى الماركسي ، وإنما هو مبني على الكد والاجتهاد ، انطلاقا من أرضية واحدة ، يستوي فيها الغني والفقير ؛ اذ من واجبات الدولة الاسلامية أن توفر للفقير ضروريات العيش لا بمعنى اللقمة العارضة ، بل بمعنى المدد الذي يكون له مفعول دائم ، كالإعانة على إنشاء مصدر ارتزاق ، أو ، بالنسبة الى الشبان ، تمكينهم من التكوين المهني أو العلمي الذي يناسب مواهب كل فرد ، وبه يصبح الفقير غنيا عن المسألة .

وليس من الأديان السماوية كالاسلام في عنايته

بحياة المجتمع ، من مختلف الوجوه ، لتيسيرها ، وإزالة أسباب الأذى بين الناس ، ونشر البر والتعاون بينهم . فقد نظر في سلوك الأفراد في المجتمع ، حتى من الناحية المادية ، من حيث النظافة ، وإماطة الأذى عن المرافق العمومية كالطّريق وغيرها ؛ كما عني بأحكام السوق ، فضبط للتجارة والصناعات أحكامها وآدابها ، ضبطا دقيقا ؛ كما نظر الى الزراعة على أنها مورد رزق عاجل لمن يباشرها ، وآجل لمن بعده .

هذا موقف الاسلام من المجتمع ، حاولت أن أشير اليه إشارات خاطفة ، للتدليل على حرص الدين على العناية بحياة الأمة . ولعله يمكن إرجاعه الى ثلاثة مبادىء هي اليوم ، في نظر المجتمعات المتقدمة ، أساسية :

تقرير المصلحة بإعمال العقل ؛ وتحديد المصلحة بما يعود بالخير والنفع على المجموعة كلها ، أو على أكبر عدد منها ؛ ثم عدم قصر المصلحة على الأحياء ، ووجوب النظر أيضا الى الأجيال القادمة ، لضمان حقوقهم علينا في تهيئة المنافع والمرافق اللازمة لحياتهم .

الإصلاح والتطوّر

من خطاب الافتتاح للندوة الإسلامية الثالثة التي التأمت بالقيروان بمناسبة الذكرى النبوية الشريفة « 6 ربيع الأنور 1397 - 24 فيفري 1977 .

القضية الرئيسية ، اليوم ، بالنسبة الى المجتمع الاسلامي ، إنما تتعلق بكيفيّة الملاءمة بين القيم الاسلامية ومقتضيات العصر .

تلك قضية جوهرية ، شاملة لكافة مظاهر حياتنا الاجتماعية ؛ وهي ، أيضا ، قضية مصيرية : لا تقتصر على حاضر المجتمع الاسلامي ، بل تتجه الى مستقبله ، لتستكشف آفاق تطوره ، لا إصلاحه ، فنحن لا نؤمن بالاصلاح ، بل نؤمن بإمكان التّطوير ، بل بلزوم التطوير في اتجاهات معينة ، لتقريب الشقة بين الدين والمجتمع .

وفي نظرنا أن أغلب المشاكل التي نعانيها اليوم ناتجة عن اتساع الفتق بين المجتمع والدين ، وتغلّب الاعتقادعند الكثيرين أن في الإمكان إرساء أوضاع اجتماعية صحيحة – أي مستقرة وحيّة – دون لجوء الى الدين .

وهنا لابدّ من تحرير مسائل ثلاث :

الأولى أنه لا يمكن الحديث عن «المجتمع الاسلامي» بالإفراد ، بل نحن مضطرون الى صيغة الجمع ، لاختلاف البلدان الاسلامية ، من حيث الأوضاع الاجتماعية ، والثقافية ، والتاريخية . لذلك فسوف نلتزم صيغة الجمع ، فنتحدث عن «المجتمعات الاسلامية» ، في تعدد أنماطها ، واختلاف مظاهرها .

أما المسألة الثّانية ، وهي من الأهمية بمكان ، فتخص مفهوم الإصلاح . واعتقادنا أن مفهوم الإصلاح لم يعد يفي بجملة المعاني والعمليات التي نقصدها ، عندما نتحدث عن حاجة المجتمعات الاسلامية الى تغيير أوضاعها ، والملاءمة بينها وبين

تعاليم الدين ، من جهة ، وبينها وبين مقتضيات العصر، من جهة أخرى ، معا ودون فصل . لذلك فإن المجتمعات الاسلامية تبدو ، اليوم ، الى النهوض الشامل والتطور الحثيث الجاد ، أحوج منها الى الإصلاح ، مهما بلغت مكانة «الإصلاح» عند السلف، ومهما كان في نفوسنا جميعا ، وقعه ورنة لفظه .

أما المسألة الثالثة ، وهي الأكثر أهمية ، فهي تتعلق بكيفية اعتبار ماضي الأمة الاسلامية ، وضرورة الميز بين التعاليم الدينية وجملة الأوضاع التي كانت عليها الأمة . فبقدر ما يتحتم الرجوع الى التعاليم – بالفهم والفقه الصحيح والتدبر – فإن الرجوع الى الأوضاع السالفة متعذر ، لأن سنة المجتمعات التغيّر ، وليس من المنطق أن نروم الرجوع الى أوضاع زالت أسبابها التاريخية وعللها الاجتماعية .

لذلك ، فان الذي ينبغي أن نقصد اليه ، ليس هو الإصلاح الذي يعني إرادة الرجوع الى أنماط معينة ونماذج مخصوصة ، بل هو تطوير الأوضاع الحالية ،

باحتذاء التعاليم الدينية ، عندما يكون ذلك لازما ، وبالاستيحاء من جوهر مقاصدها الأخلاقية ، وزكي نفحاتها الروحية ، فيما عدا ذلك .

ومن هذه الوجهة ، فانه يجدر بنا أن نعتبر بناء المجتمع الاسلامي عملا متواصلا ، قوامه الاجتهاد البشري ، بحسب الواقع والظّروف ، وطبقا لروح الاسلام ، كما تؤخذ من سنة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، ومن خلال سلوك خلفائه الذين أسسوا الدولة وسنوا القوانين . بناء المجتمع الاسلامي، اذن، عمل مستمر ، لا ينقطع .

وأهم ما اتسم به روح الاسلام أمران : الاجتهاد الذي حرّض عليه الرسول تحريضا ، وجعله من واجبات الحكم ، وجعل فيه للحاكم الأجر ، وإن أخطأ . ومعنى الاجتهاد ، من قبل الحاكم ، يشمل كافة جوانب الحياة الاجتماعية ، بما فيها من تنظيمات ، وتشريعات ، وإبداعات ، من أجل المصلحة العامة .

أما الأمر الثاني ، فطلب العلم ؛ وهو ، بعد

التقوى وفعل الخير ، أفضل ما يقوم به المسلم .

فان تدبّرنا المعنى الحقيقي الذي اليه يدعو الدين ، بحثّه على الاجتهاد ودوام طلب العلم ، فإنّا ندرك أن سنة المجتمع الاسلامي إنما هي التطوّر الدائب الذي لا ينقطع ؛ ولا يكون ذلك الا بدوام إعمال الفكر وطلب المعرفة . وبذلك تأويل القاعدة المأثورة : الدين صالح لكل زمان ومكان . وفي ذلك أيضا خير مصداق للقول المأثور : «اعمل لدُنياك عمل من يعيش أبَدًا ... » .

فإن كنّا باتفاق على أن الذي تحتاج اليه المجموعات الاسلامية إنما هو نهوض شامل بكامل طاقاتها ومختلف أوضاعها ، فإنه يمكن أن ننظر في انطلاقة الأمة الاسلامية في عهد الرسول ، صلى اللّه عليه وسلم ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، والمصلحين من أولي الأمر بعدهم ؛ فنستوحي منها أسرار القوة التي بها أصبح المسلمون أمة متماسكة ، وبنوا دولة راشدة ، ومجتمعا مزدهرا .

وأهم ما كانت به قوة المسلمين الأول أن

التّنظيات الاجتماعية لم تُقَمْ فقط على أسس موضوعيّة – بلغت ما بلغت من الصحة والمتانة – بل أقيمت على أسس روحية ، وأُعِدَّ لها في نفوس البشر قواعد ثابتة راسية ، تمكّنها من الصمود أمام الأنوار وتقلب الأحوال . وبهذه الأسس الروحية نعني ما أوقده الاسلام في المهج من قيم ومبادىء ، بها كانت مناعة المجتمع الاسلامي .

ونكتفي بالإشارة الى أهم هذه المبادىء ، وفي مقدمتها روح الكدّ التي ندب اليها الدين : فقد جعل أول واجبات المسلم الكدّ في الحصول على الرزق ؛ ونهى عن الاتكال على الغير ، أو الاعتماد على الجاه أو النسب . ولقد بلغ الاسلام في الإشادة بالكدّ الى أن فضّله على الانقطاع الى العبادة . وبذلك يكون المجتمع الاسلامي متجها بكليته الى العمل والكدّ ، في سائر ميادين الحياة . وإنما تغيرت الأمور ، لما أعرض الناس عن هذا المبدإ .

ومن أركان الاسلام العدالة الاجتماعية التي تجعل المسلمين في مأمن من هضم حقوقهم المادية ، وتفرض

لكل عمل أجره ، كاملا وافيا ؛ فتضمن بذلك التعايش بين مختلف الفئات الاجتماعية ، على قاعدة التكامل ، صدقا وعدلا ، مشتركة في النهوض بأعباء المجتمع ، كل فئة حسب طاقتها .

ويزيد في تدْعيم صرح هذا المجتمع الاسلامي ما يقوم عليه من تضامن اجتماعي يفرض على المجموعة العناية بضعفاء الحال ، إما بتمكينهم من وجوه طلب الرزق ، وإما بمدّ يد المساعدة ، الى من ثبت عجزه ، بطرق شرعية ، عجزا طارئا أو دائما .

أما الركن الرابع الذي ضمن للاسلام الرفعة والتقدم ، فهو المساواة بين كافة المسلمين ، شعوبا وقبائل وأفرادا ، مع نبذ الفروق القائمة ، لا فقط على النسب ، بل أيضا على العرق : فلم يفرق بين الأسود والأبيض ، كما أنه لم يجعل الناس طبقات باعتبار أنسابهم . فقضى بذلك على سبب هام من أسباب البغضاء بين الأفراد ، والشحناء بين الفئات ، والعداوة بين الشعوب .

وإنما ، بالمساواة والتضامن والعدالة ، تتفادى المجتمعات انتفاضات المستضعفين في الأرض : فتضمن، بين كافة الطبقات ومختلف الشعوب ، تواصل السعي والكدّ ، من أجل الرزق ، ومزيد الخير والرفاه للجميع ، دون ميز ولا ظلم .

ولئن اشتهرت هذه المفاهيم ، اليوم ، بانتسابها الى المذاهب الملقبة بالاشتراكية ، فقد كانت ، في الحقيقة ، ومنذ البدء ، من روح الاسلام ، وعماد فلسفته الاجتماعية . ولكن سرعان ما تنكّرت لها مجتمعاتنا ، ولم يعد يؤبه لها ؛ فتلاشت بين أيدينا ، حتى ظن البعض منا أنها من ابتكار أمم غيرنا .

واشدّ ما نخافه على قادة الفكر عندنا أن ينقادوا لما تسرب الينا ، عن طريق الثقافات الغربية ، من مركبات خفية تجعلهم يعزفون ، باسم المنطق ، عزوفا لاشعوريًّا ، وبدون حجة ، عن إحلال الدين المكانة التي هو بها جدير في التنظيمات الاجتماعية .

فلننظر فيما عليه البلاد التي ظنّت أن لها أن تستغني

عن الدين وضوابطه ، ولنتعظ بما تردت فيه من آفات العنف والفتن ، بسبب انتهاك كل الحرمات . ففي ذلك عبرة بأن البشر يفقد من انسانيته ، اذا ما فقد الإيمان بسلطان أعلى يتجاوز البشر .

ولعله قد آن الأوان لإعداد العدة لمؤتمر اسلامي ، يضم ، الى جانب فقهاء الدين ، ثلة من رجال الفكر والسياسة وعلماء الاقتصاد والاجتماع ، وذلك لضبط منوال اسلامي للتنمية : لا يتقيد بالنّماذج الغربية أو الشرقية الغالبة اليوم على بلاد العالم الثالث ؛ بل يستنبط من واقع شعوبنا وتالد روحها مواقف وطرائق يمكن لسائر المجتمعات الاسلامية أن تحتذيها بتصرف واجتهاد، لتحقيق التطور الاجتماعي والازدهار الاقتصادي ، دون ما طمس لتقاليدها الروحية ، ولا إغضاء من قيمها الأخلاقية ، ولا تنكّر للمحيط الثقافي والحضاري الذي يكتنف شعوبنا .

ففي الاسلام ، إن نحن أحْسَنْنا النفاذ الى حقائقه الجوهرية ، واستجلينا ما يحمله الى البشر من قيم وتوجيهات ، خير منطلق لمجتمعاتنا ، كي تقوى على

معالجة قضايا العصر ، والظفر لها بحلول ملائمة ، بحسب اختلاف الظروف والأوضاع .

حفظ القرآن بتدبّره

من خطاب ألقي في الحفل الذي أقامته الجمعية القومية للمحافظة على القرآن الكريم لتوزيع الجوائز على الحفاظ "جامع مقرين 21 جمادى الثانية 1399 - 18ماي 1979» .

القرآن معجزة هذا النبي الأمّي ، صلوات اللّه عليه ، الذي قال عنه عز وجل « **وما علّمناهُ الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرءان مبين (*) لتنذر من كان حيا ويحقّ القولُ على الكافرين** »(1).

وهو بحق ، الى يوم الدين ، معجزة للعالمين ، في إيجاز لفظه وبلاغة تعبيره وشمول مغازيه ودائم تأثيره في السامعين لتلاوته ، والواقفين على معانيه ، حتى من

---

1. سورة يس الآيتان 69 ، 70

خلال ترجمته ، سواء في ذلك خاصة العلماء والمفكرين وعامة الناس ، من المؤمنين وغير المؤمنين .

ولئن كان حفظ القرآن من واجبات المسلم ، فان حفظه باللسان لا يتم القصد منه حتى يقترن بحفظه بالقلب ، وهو التدبر لمعانيه النيرة ، والنفاذ الى مقاصده الجليلة ، حتى يكون بحق جلاء للقلوب ، ونورا للعقول، ومرجعا في كل قول وعمل .

لذلك ينبغي أن نحرص على اقتران الحفظ بالتفسير الذي يخاطب الناس بما يفهمون : فبالفصحى والتبحّر في دقيق المعاني ، عندما يتجه الخطاب الى من يحذقون ذلك ؛ وباستعمال أيسر السبل وتبسيط الشروح ، في سائر الحالات ، تعميما للفائدة وحرصا ان يكون القرآن كلمة سواء ، بين كل المسلمين ، باللّفظ والمعنى ، لا تفرقة بينهما ، ابقاء على نقاوة الدين ، وحيوية تعاليمه ، وإشعاع هديه ، في كل المستويات الاجتماعية .

فالقرآن والسنة دستور الاسلام : هما المنبع ، وهما المرجع ، عندما تختلط السبل . وفيهما يجد الانسان

ضالته ، خاصة في هذا العصر الذي تقطعت فيه السبل، واتسع الفتق بين شؤون المادة وشواغل الروح، فأصبح البشر يعيشون ممزقة هممهم بين العاجل وبين ما تصبو اليه نفوس خاوية على عروشها ، لا يظفرون بالوئام بين ما يسد الرمق وما يحيي الضمير ، الا من قذف اللّه في قلوبهم نور الإيمان ، وهداهم الى دينه الحنيف ، فدخلوا في سلمه ، ولاذوا بحرمه ، وبايعوا رسوله ، صلى اللّه عليه وسلم ، ورضوه قدوة ، ومرشدا ، وشاهدا أمينا .

وذلك ما جعل العديد من الأعاجم ، في هذا العصر ، من باحثين وعلماء من مختلف الأصقاع ، يعتنقون الاسلام بعد حيرة وتوقف ، وطرق لشتى الأبواب . فكان وقوفهم على كتاب اللّه الحكيم خاتمة المطاف ، بعد تدبر لتعاليمه ، ونفاذ الى مقاصده .

ذلك أن جواب الاسلام عن حيرة البشر ، أمام لغز الوجود ، أقوى نفاذا الى أعماق الضمير ، وأنصع نورا ، وأكمل شمولا ، بما يدعو اليه من توحيد اللّه عز وجل : واحد أحد ، لم يكن له كفؤا ولا أحد ، وليس

بينه وبين البشر حجب ، يصطنع لنفسه من عباده رسلا يبعثهم الى الناس رحمة وهدى وسرجا منيرة ، «كل ءامن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله» (1) . يغفر الذنوب جميعا ، انه الغفور الرحيم .

وخلق الاسلام أكمل وأبقى على مر العصور ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ،لا من خلفه . بينما الأخلاق التي جاءت بها الرسل من قبله قد اعتراها من الزيادة والنقصان ما لم يعد معه سبيل الى الاطمئنان اليها . فأخلاقية الاسلام تراحم بين المسلمين ، وإحسان الى غير المسلمين ، لا في علاقات الأفراد فيما بينهم فحسب ، بل كذلك في تنظيم المجتمع ، حتى يكون الانسان بحق خليفة الله في الأرض .

ومما يمتاز به القرآن عن سائر الكتب السماوية في صورها التي وصلت الينا انه يدعو الى إقامة مجتمع التضامن ، سواء في نطاق العائلة ، أو في العلاقات

1. سورة البقرة الآية 285

الاجتماعية والاقتصادية : على أن يكون التضامن لوجه اللّه ، وسعيا الى ما يصلح شؤون الناس ، عاجلا وآجلا .

ذلك أن الدين عند اللّه الاسلام . وعلى عكس ماادعته صحافة ممعنة في الجهل والجهالة ، فإنّ القرآن يدعو الى الدين الحنيف ، الدين القيم الذي لا إسراف فيه ولا عوج . ولكن المجتمعات الاسلامية هي التي ابتعدت عن التعاليم القرآنية الزكية ، فدخلها من الارتباك ، وطرأ عليها من الزيغ ما جعلها ، معا ، على غير تجاوب وروح القرآن ، وعلى غير نسق ومقتضيات العصر .

من ذلك هذا الطلب الملح الّذي تشهده أغلب المجتمعات الاسلامية اليوم ، قصد الظفر بجدلية إنمائية تفتح سبل الازدهار ولا تحجب من إشعاع الروح .

ومن الطبيعي أن يختلط هذا الطلب بمآرب عاجلة ، اجتماعية او سياسية . ولكن الجوهر الذي هو مدار الرهان ، أن يسلم الدين من كل زيغ ، فيبقى دين

قوام واعتدال لا غلو ، ولا شطط ، ولا يكون ذلك الا اذا تسنى للمجتمعات الاسلامية أن تراجع شؤونها مراجعة منظمة ، تمكنها من ابتكار انماط اجتماعية ، وصيغ اقتصادية ، تتوفر معها إيجابية الجدوى وروحانية التوق ، لا تفرقة بين هذه وتلك ؛ مراجعة تفتح أمام المسلمين ، مع اعتبار القواعد الشرعية في ذلك ، أبوابا من الاجتهاد تجعلهم دوما قادرين على مواكبة العصر دون تنكب عن تعاليم الدين .

من أجل التعريف بحضارة الاسلام

من كلمة ألقيت في مكة المكرّمة بمناسبة انعقاد ندوة اعداد الاحتفالات بالقرن الخامس عشر « 10 المحرم 1399 – 18 ماي 1979» .

تظافرت المساعي للدعوة الى استقبال القرن الهجري الجديد ، ولئن كان ذلك مبعث اعتزازنا ، نحن معشر المسلمين ، فان الأحق بهذه الدّعوة لَمنظّمة الدول الاسلامية التي قامت أمانتها العامة بمساع حثيثة لعقد ندوتنا هذه ، التي ليس أجدر باحتضانها من هذه الأرض الزكية المباركة ، ارض المملكة العربية السعودية، اذ بها كلا الحرمين الشريفين ... اللذين بينهما قامت الدعوة الى الاسلام ، فالهجرة النبوية التي بعدها جاء نصرُ اللّه والفتح ورأيتَ الناس يدخلونَ في دين اللّه افواجا ، في شبه الجزيرة العربية ، ثم في

الأصقاع المجاورة وفي أنحاء من العالم .

وأحيّي هذه البادرة التي قامت بها منظمتنا ، اذ دعت الدول الاسلامية الى التهيؤ لاستقبال القرن الهجري ، في نطاق كل بلد ، وكذلك في المستوى الدولي حتى يكون ذلك عبرة للناس جميعا : للشّعوب الاسلامية نفسها ، ثم لشعوب الأرض قاطبة ، وهي لا تعلم عن الاسلام الا القليل ، وما تعلمه ليس دوما مطابقا للحقيقة ، ولا خاليا من النوايا المغرضة .

وبذلك تتظافر الجهود في مختلف البلاد للتعريف بالجهد العظيم الذي قامت به شعوبنا منذ الفتح ، مساهمة منها في بناء صرح الحضارة الاسلامية ، من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، واشتراكا في دعم الحضارة الانسانية ، عامة .

واعتقادنا ان ما ستنجزه لجنة وطنية لابدّ ان يكون أثره عميقا في مختلف فئات الشعب ، وخاصة منها فئات الشباب ، لإذكاء الإيمان فيها ، لا فقط بالعقيدة وهي ، حقا ، في أشد الحاجة الى ما يعين على إحيائها

وترسيخها ، بل ايضا ، وهو مطلب له بالغ الخطورة بالنسبة الى مستقبل مجتمعاتنا ، لتثبيت الإيمان بنجاعة الاسلام ، دستورا للمجتمع ، ونظاما للفكر ، ومحورا للقيم .

فالأزمة التي تواجهها مجتمعاتنا ليست ، أساسا ، أزمة معتقد ، بقدر ما هي أزمة قيم ، ناشئة عن التخلي عن القيم الحضارية والفكرية والأخلاقية التي هي أركان دار الاسلام ؛ وذلك بسبب الاحتكاك بأنماط حضارية أجنبية توهّمنا انها أكثر نجاعة في إسعاد الانسان والنهوض بالشعوب ؛ ونسينا ان النهضة لا تقتبس أسسها ، ولا تستقلد القيم التي تنطلق منها ؛ لان النهضة انما هي إجلاء للذاتية القومية ، وإحياء للقيم الروحية الأصيلة ، حتى تتوفر للفرد قدرته على الاجتهاد، وحتى تتظافر جهود المجموعة لبناء الجديد البديع ، على دعائم القديم التليد .

لكن العبرة لا تكون كاملة ، ان نحن جعلنا هذه الاحتفالات الوطنية مقتصرة فائدتها على أهل البلد ، ذلك ان مما يشكوه المسلمون ، قلة التعارف بينهم :

فلا يكاد المسلم العربي يعرف عن المسلم ، في افريقيا السوداء ، او في أقاصي القارة الأسيوية ، الا القليل ، الممزوج بالغلط الكثير ؛ هذا على فرض ان المسلمين العرب ، بعضهم مطلع على أحوال البعض الآخر ، اطلاعا كافيا ؛ وهو أمر أقل ما يقال إنه غير أكيد .

فلابدّ أن نسعى ، بكل ما أوتينا من وسائل الإقناع ، الى ان تكون مهرجانات كل بلد فرصة ، لأكبر عدد ممكن من مسلمي سائر الأقطار ، للتزاور ، قصد الاطلاع وتأكيد الأواصر ، وتقوية اللحمة . لذلك نقترح أن يقع تنظيم هذه المهرجانات الوطنية حسب رزنامة ممتدة على سنتين ، على ان تلتزم الدول حثّ المنظمات الاجتماعية والثقافية ، وخاصة منها منظمات الشباب ، على تنظيم الرحلات الى ما يتيسر من البلاد الاسلامية ، لحضور مهرجاناتها ، والمساهمة في ندواتها الفكرية ، وتظاهراتها الفنية ، وبذلك نكون قد بلغنا هدفين ، لا يقل أحدهما أهمية عن الآخر ، وهما : توسيع اطلاع المسلمين أنفسهم على مظاهر الحضارة الاسلامية في مختلف بقاع العالم الاسلامي ؛ ثم دعم الصلة الحية بين فئات من الشعوب مختلفة في اللغة

والعادات ، لكنها تنتمي كلها الى ما نعتز بتسميته الأمة الاسلامية ؛ وبذلك يتحقق التعارف والتآخي اللذان ندب اليهما الاسلام دينا ، وهما ، ايضا ، من أهم مطالبه الحضارية والثقافية .

والى جانب الأعمال التي تنظم في نطاق كل بلد ، من الطبيعي ان تفكر المنظمة في القيام بجملة من الأعمال الهامة في مستوى المجموعة الاسلامية كلها .

وأعتقد انه يمكن ان تكون على صنفين : صنف ينجز بالأراضي الاسلامية ، وصنف آخر يهدف الى التعريف بالاسلام ، في اكبر العواصم العالمية .

أما الصنف الاول ، اي الاعمال التي تقوم بها المنظمة في أقطار اسلامية ، فمن الفائدة أن توزع على أكبر عدد ممكن من البلاد الراغبة في احتضانها ، على ان تراعى الأولوية للمجموعات الاسلامية التي تواجه تحديات خاصة ، كاخواننا في القدس وفلسطين المحتلة ، وكذلك الاقليات المستضعفة لدعمها وشد أزرها .

أما الأعمال التي نحن مدعوون الى إنجازها نخارج دار الاسلام فلابدّ من مخطط نوليه من الدرس والضبط والعناية ما يقيه الفشل ويضمن له القدرة على تحقيق المقاصد التي اليها نرمي : وهي التعريف بالاسلام الحقيقي ، باظهار ما أتى به من ثورة في الفكر والأخلاق والاجتماع ، قد لا تفصح عنها بكامل الوضوح منزلة الشعوب الاسلامية اليوم ، لأسباب وعوامل غير راجعة الى الاسلام بل هي تعود الى الانحراف عن التعاليم النيرة التي جاء بها القرآن والسنة ، ونهج لها المجتهدون من السلف الصالح المصلح ، وهي تعاليم تتلخص في التمسك بالأخلاق لا بالقشور ، والتزام الاجتهاد في شؤون الدنيا والدين ، بحسب ما تدعو اليه مصلحة الاسلام ومصلحة المسلمين ، وهما متّفقتان ، اذ ان كل ما يضمن مصلحة المسلمين ، فيه إعزاز لجانب الاسلام.

وحبذا لو أمكن الاشتراك في تنظيم أعمال ضخمة، في كبريات عواصم العالم . ولكن الاقتراح الذي أتقدم به الى حضراتكم هو الآتي :

لكل دولة من دولنا ، في البلاد الأجنبية ، تظاهرات في نطاق برامج المبادلات الثقافية والفنية ، خلال السنتين القادمتين : فلتكن تلك التظاهرات مخصّصة للتعريف بمعالم الاسلام عندها ، ومآثره الحضارية ، وأنواع الإنتاج الفكري والادبي والفني الذي انطلق بفضله .

بذلك نكون قد وُفقنا الى تنظيم حملة إعلامية وثقافية في شتى أنحاء المعمورة ، مركّزة على التعريف بالمجتمعات الاسلامية على تنوُّع وجوهها ، ومع اتفاق مشاربها .

واود ان اختم هذه الكلمة الموجزة بالإعراب عن أمنية طالما راودتني ، وأعتقد أن منظمة الدول الاسلامية في مقدورها ان تعمل على تحقيقها .

الاسلام ، في نظرنا جميعا ، معتقد ، وجملة من التنظيمات التشريعية والأخلاقية والاجتماعية ، ولا يعقل الفصل بين المعتقد ومقتضياته العلمية ، في حياة الافراد والجماعة ، كما هي الحال اليوم بالنسبة الى أغلبية

المسلمين . ولئن بدت اوضاع الاسلام على شيء من الارتباك ، في عصرنا هذا ، فانما ذلك لانعدام التوفيق بين مقتضيات الدين ومتطلبات العصر : ذلك التوفيق الذي كان يقوم به أسلافنا ، لما كانوا يتحلون بجرأة الرأي ، وقوة العقيدة التي لا تأخذهم فيها لومة لائم .

فلابدّ أن تستأنف المجتمعات الاسلامية عملية التوفيق تلك ، في المستوى النظري ، وفي مجالات العمل اليومي ، ولا يتأتى ذلك الا بجهد جماعي ، تشترك فيه كل المجتمعات الاسلامية .

فالذي اتمناه ، هو ان تدعو الدول الاسلامية الى عقد مؤتمر يجمع بين فقهاء الدين وفقهاء الاجتماع والاقتصاد ، ممن عرفوا ، من اولئك بسعة الفكر ، ومن هؤلاء بسلامة العقيدة ؛ فيطلب اليهم ان ينظروا في الملاءمة بين شؤون الدين والدنيا ، بما يوفر المصلحة ، ويضمن مواكبة العصر ، ويعيد الى المجتمعات الاسلامية ما كانت امتازت به في اوج انطلاقها من حركية وتقدم وازدهار .

اعتقد ان ذلك من واجب المسلمين اليوم ، وبخاصة الحكماء من ذوي العلم والفقه منهم . ولا يمكن ان يطمئن احدهم الى انه قد ادى الواجب وبلغ الرسالة اذا آمن واهتدى ، لنفسه ، وبمعزل عن شؤون المدينة ، دون تحمل لمسؤولية مصير الأمة . فكلنا مسؤول عن الاسلام وعن ومصيره ، وعن مستقبل ابنائه . كلنا راع ، وكلنا مسؤول عن رعيته .

الفهرس

سحب من هذا الكتاب 5300 نسخة في طبعته الأولى

طبع بمطبعة بيطا 56 نهج ايران

صدر عن هذه السلسلة

في قراءة النص الديني
تأليف: جمع من الأساتذة

العامل الديني والهوية التونسية
سعد غراب

كيف نهتم بالتراث
سعد غراب

الإسلام والحداثة
عبد المجيد الشرفي

المشاركة السياسية في المغرب العربي
المنصف وناس

أضواء على كتب السيرة النبوية
علي العريبي

لحظة المكاشفة الشعرية
لطفي اليوسفي

لأفهم فصول عن المجتمع والدين
عبد الوهاب بوحديبة

من قضايا الفكر الديني بتونس
عبد الرزّاق الحمامي

الإبرام والنقض
كمال عمران

في الدين والعدل والحرية
أحمد الحذيري و الحبيب بن صالح

27

BN 9973 - 12 - 140 - 6
9973 - 12 - 229 - 1

الثمن : 1,500 د.ت